

[maktabbah.blogspot.com](http://maktabbah.blogspot.com)

# بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



شَهَادَةُ إِيمَانِي  
لِلشَّهَادَةِ

## إهداء

### «إلى صديقى الذى شاطرنى الطريق منذ بدايته»

عزيزي التعيس، يبدو أن قدرك أراد أن يوقعك في طريق اجتاحته ظلمات لا بداية لها يتها فجئت لتقرأ صفحاتي. أرى أمامي جلياً أنك لا تتوقع رواية رومانسية تفوح من صفحاتها رائحة ذلك العطر الأنثوي الذي يغتصب شعيراتك الأنفية عندما تستقل المصعد خلف زميلاتك الجميلات ذوات التنورات القصيرة والسيقان الناعمة - واللاتي بالطبع لم تجرؤ يوماً على محاولة إحداهنّ. كما أرى أنك لا تتوقع رواية حارقة يظهر فيها ذلك البطل ذو الجسم العاري أغلب الوقت وعضلاته البارزة لكي ينقذ العالم من الشر، بالطبع أنت لست بذلك السخيف، فالخير لا ينتصر على الإطلاق ولا حتى من باب التجديد.

وبالتأكيد لا تتوقع أن بطننا هنا نشا في قرية فقيرة من أسرة معdenة ليواجهه العالم ويصبح بطلاً في شيء ما، لا على الإطلاق فهذا ليس برنامجاً للتنمية البشرية أو ما شابه.

أنت هنا أمام قصة خيالية تماماً، لا يوجد أدنى درجة تشابه بين أحداها والواقع، قصة بطلها شاب عادي لا يقل عنك تعاسة، لا يمتلك أدنى درجة من العبرية ولا القوة المفرطة، فرجاء لا تحاول إسقاط أي شيء هنا على الواقع .

\*\*\*

## مقدمة

حدثني جدي في صغرى عن قرية كان يعرفها، قرية اعتاد أهلها إلا يتركوا صلاة خارج المسجد، ذلك المسجد الذي لن تجد فيه موطن قدم من كثرة مصليه عاش أهل القرية لا يكفون عن عبادتهم، فلا خمر تسقى، ولا بيوت تنهب، ولا يهتك فيها عرض ولا دم يراق. تتابعت الأجيال حتى يئست منهم الشياطين فذهبوا ل الكبيرهم يستفتونه

- مولاي! إن أهل هذه القرية لا يتركون أعمالهم إلا لصلاة في مسجدتهم، ولا يتركون أفرشتهم إلا لفجر يستمعون أذانه، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولا يلتفتون لحسناوات النساء من هنا أو من هناك، ولا يتركون حقاً إلا ويردوه لأهله دون سهو أو انقطاع، ولا تتفحص أعينهم المازأة ولا يخوضون في أعراضهم، وإن لنا في هذه القرية أكثر من مئة عام وما يزيد them الزمن إلا تقوى وإيماناً حتى لم يعد فيهم منكرٌ يتناهون عنه، فافتنا وانظر ماذا ترى إنا لمنصتون.

فما كان رد سيدهم إلا أن قال:

- انظروا ولكم في ذلك عبرة وسنة تبعونها.

فتمثل الشيطان ليلاً في هيئة عازف حسن الوجه، كثيفة هي لحيته حتى لا يبدو غريباً عنهم، فارع الطول نظيف الثياب لا يبدو عليه شقاء أو عناء، وانخذ مكاناً له بالقرب من مسجد القرية الكبير خلف جدار - ربما كان أحد التجار ينتوي أن يجعل منه وقفاً للقراء وأبناء السبيل - وقبيل أذان الفجر بقليل بدأ يعزف على آلة «البيانو» .

مزاليوم الأول ولم يلتفت أحد لهذا الرجل ولا لهيئته، ربما هو متسول مسكين أساء التموضع لطلب إحسان من أهل القرية، وربما هو عازف متوجول يجوب القرى ليجمع رزقه، وربما هو أي شيء آخر، فلم يلتفت له أحد من المهرولين لصلاة الفجر التي اعتادوا على أدائها.

عدة أيام مرت دون أن يحدث تأثيرٌ حقيقيٌ حتى ولو ضئيل في نفوس أهل القرية حتى ذلك اليوم الذي نزل فيه أحد المصليين متأخراً قليلاً، فسمع مقطوعة من عزف الرجل فتأثر بها قلبه ووقف لثوانٍ لتدمع عيناه قليلاً، قبل أن يسمع إقامة الصلاة فيهرول يائساً للحاج بتكبيرة الإحرام. بينما لم يتوقف العازف عن عزفه، فجاء فجر اليوم التالي لينزل صاحبنا مبكراً ليستمع لتلك المقطوعة التي رق لها قلبه ودمعت لها عيناه، وتتأثر بها مجدداً بينما يفكر في العازف، ما دوافعه، وما الذي يبقيه في هذا الصنيع يعزف تلك الألحان الرقيقة التي تقتحم

القلوب ؟ ثمَّ مع هرولة المصلين هرول معهم، خوفاً من أن يقال إنَّه أقلَّ منهم إيماناً وتفوى. ومزَّت القليل من تلك الليالي الباردة مع تغير طفيف، فصار صاحبنا يقف لساعاتٍ مع صديقين له كانوا يتشاركون في بعض التجارة والمعاملات اليومية، وفعلياً تأثروا به وبعذفه وبتلك العواطف الجياشة التي تنشرها أحانه، فهذا تذكر يوم قضت أمه نحبها، وذاك تذكر يوم تزوجت محبوبته من شخص آخر.

ومع توالي الليالي يزداد عدد المستمعين العاشقين الهائمين في تلك الألحان، فيقرر أحد التجار أن يبني بيتاً للعازف يقيه من هذا البرد ومن سباع الطريق، ولم يمض من الوقت الكثير إلا ليقوم تاجز آخر بتوسيع هذا البيت حتى يسع العدد الأكبر من المستمعين، فكما تعلم، الجو بالخارج بارد. فلما ازداد عدد المستمعين بالحان ذلك الفنان قام بعض المتطوعين بوضع الكراسي والطاولات، واستغل أحد التجار ذلك فصار يقدم المشروبات والعصائر مُوظِّفاً بذلك بعض صبيان القرية الطموحين لخدمة الرجال الحاضرين. وتمنَّ الأيام فتسمع إحدى فتيات الطريق - والتي هربت من قريتها لأسباب لا نعلمها - أن هذه القرية إذا انتصف الليل فيها ترك رجالها نساءهم وديارهم وتجمعوا عند العازف، فدخلت وهي تسعي لنيل رضاهم بالطريقة التي تعرفها أنت كما أعرفها، وتسمع باقي فتيات الطريق اللاتي لم تختلف ظروفهن كثيراً عن ساقتهن ليقمن بنفس ما فعلت، حتى بادرت إحداهن ببيع فرجها لأحد الرجال لتتبعها بقيتها، ويولين بين أنفسهن الأكبر سنًا لتنظيم ذلك بينهن وبين الرجال. وأزداد طمع التجار فقام أحدthem ببيع الخمر لأن سعره أغلى ولأن الرجال استمتعوا به في المزارات القليلة التي قدم لهم فيها، حتى أن صبياً من أولئك الصبية عندما رأى أحد الرجال قد أسكرته الخمر حتى العمى أخذه لداره فوجد امرأته - التي ربما كانت جميلة - فاستهاها واحتسته ووقع ما وقع، فإذا انتصف الليل كل ليلة تجدد اللقاء بينهما. ولم يمض الكثير حتى اغتبط بقيمة الصبيان من زميلهم الذي صار يقضى بطولاته عليهم، فمنهم من قلدته ومنهم من وشى به عند زوج صاحبته وهو مخمور، فقتله وامرأته وأتبع ذلك بقتل

نفسه خوفاً من أهل قريته.

مرّت تلك الأيام ولم يتوقف العازف لحظة عن عزفه، ولم يتوقف رجال القرية عن الحضور، حتى صار المؤذن نفسه أول الحاضرين، حيث يجتمع الرجال والنساء وعندما يعزف الشيطان.

\*\*\*

(١)

### الفوضى

كان يوماً جديداً لا فائدة له ولا معنى إلا أنني ما زلت حياً - للأسف - استغرقت بعض ثوانٍ لأدرك ذلك بعد أن كان ذلك العصفور المزعج - الذي لطالما نال مني أقذع الشتائم وأبشعها - يصدر نغمات لا تدل على شيء مطلقاً فكانت تشكل مع صوت المنبه سيمفونية مزعجة من تلك التي يحبها بعض الحمقى.

عليّ الآن أن أنهض من هذا السرير لأبدأ يوماً جديداً، ربما سيكون مختلفاً عن سابقه ولكنه لن يكون أفضل - فهذه قاعدة يا صديقي - طقطقت بأصابعِي فأضيئت الغرفة لأرى أن الساعة ما تزال الثامنة صباحاً وأنني لم أنم إلا بضع سويعات قليلة. ناديت على أمي التي لوهلة ظنت أنها ما تزال على قيد الحياة - هي أو شقيقتي أو ربما أي شخص أعرفه - مطالباً إياها كعادتي بالقهوة حتى أنهض من سريري.

قمت سريعاً بعد أن أدركت مدى سخافة عقلي حين استيقظ فحضرت فنجان القهوة وأخذت حماماً بارداً حتى تستريح عظامي المسكينة البائسة المتيسسة، خرجت لأشرب ذلك الفنجان الساخن بينما أتابع نشرة الأخبار على إحدى القنوات التي يملكها ابن عمِي، فهو ضابط سابق في إحدى الجهات المخابراتية ويعلم تماماً مصادر الأخبار التي يعرضها.

«مالي وجمهورية إفريقيا الوسطى يوقعان مع فرنسا إتفاقية الاستسلام غير المشروط، الرئيس الأمريكي «ميلاً» يحذر من تصاعد

وتيرة أحداث العنف الذي يدعو له منافسه على مقعد رئاسة البلاد ، الأمين العام للأمم المتحدة يعرب عن قلقه تجاه أحداث موسكو الأخيرة، النادي الأهلي يثوّج بلقب الدوري المصري للمرة الخمسين في تاريخه، رئيس نادي الزمالك يتهم الأهلي بالفوز بالسحر، .....»

أخبار مقلة ومكررة ومتوقعة كذلك، كدت أنهى قهوتي حين اتصل بي أحدهم إنه صبري، ابن عمي:

- ماذا هناك! هل من جديد؟

- سأعتبر أنك أقيت على التحية وسأردها لك، نعم هناك أخبار جيدة، لقد توصلنا للفاعل.

- حقاً! أوائق مما تقول يا صبري!

- بالطبع، لقد وزعنا عناصر صحافية وأمنية في كل مكان في العالم تقريباً حتى نتوصل لمكانه، وكما توقعنا، فقد قُتل.

- من هو وأين وجدتموه! انتظر انتظار الكلام هنا لن يجدي، أريد أن أراك.

- وهل سانتظرك لتقول ذلك؟ قابلني بعد ساعتين في القناة.

- ليكن، ساعتان من الآن وستجدني عندك.

يا الله! خمس سنوات كاملة حتى أعرف مصيره! كنت متاكداً تماماً من اغتياله لكنني كنت فقدت الأمل في إيجاده. ولكن من يكون هذا القذر، بالتأكيد هو مجرد حشرة تابعة لقاتل أكبر، بالتأكيد هم من قتلوه.

ارتديت قميصي الأسود وبنطالاً له نفس اللون وجلست أمام مكتبي -والذي كان بداخل الغرفة - قمت بإحضار المفاتيح والمحفظة وكل ما قد أحتاجه وأنجزت بحثاً سريعاً كنت قد أوشكت على الانتهاء منه، أخذت المصعد إلى الجراج وركبت سيارتي الفاخرة - والتي ربما لن ترى مثلها في حياتك - وذهبت مسرعاً على غير عادتي إلى مكان تلك

القناة السخيفية. ولأنّي كنت أسكن بعيداً تماماً عن العاصمة فقد كانت الساعتان مناسبتين تماماً كي أصل قبل موعدى بقليل لأنظره في ساحة الانتظار المخصصة لغير العاملين بالقناة.

جلست أمام إحدى الطاولات التي كانت في بداية الغرفة، كان يجلس أمام الطاولة المجاورة شابان يتحدثان عن الزواج وتكوين الثروة والبحث عن الوظيفة ذات المرتب الثابت وغيرها من الأمور التافهة مثلهما، خلفي كان الحائط الزجاجي اللامع والمنظف بعنایة فائقه حتى أنه كان لا يبدو موجوداً بالأساس، على الطاولة المواجهة كانت فتاة في عقدها الثالث تنظر باستمرار في ساعة يدها، بدا عليها الانتظار والقلق.

لم يلف انتباهي شعرها الأشقر القصير ولا عيناه الزرقاء ولا حتى تنورتها الوردية القصيرة، فقط فنجان القهوة الذي جعل من كفها تحفة فنيّة تستحق التمتعن والتأمل. دقائق مرت قبل أن يأتي صبري مهرولا بجسمه العملاق وشعره القصير وحاجبيه الكثيفين كأنهما خط غير مستوي رسمه طفل في الرابعة على ورقه نقدية مهترئة تماماً كوجه صبري الذي غزته التجاعيد. وبصوته العالي ونبرته الخشنة قال:

- هل تأخرت عليك؟ اعذرني يا صديقي فأنا.....

لم انتظر أن أستمع له رأيه، فقاطعته....

- أين وجدتموه؟ وكيف كان ذلك؟

قطب حاجبيه حتى أوشك على الدخول في عينيه الضيقتين وأجاب ممتعضاً...

- في موسكو، وجده نفس الرجل الذي وجد «ملاك» وفي نفس المكان كذلك.

- هذا لا يعني إلا أن أولئك الأوغاد يصرّحون بأنهم من قتلوا كلّيهم،

لابد أن نذهب يا صبّي، يجب أن أرى الجثة وأشرّحها بنفسِي.

- سيحدث لا تقلق، لقد حجزت التذاكر بالفعل وسنتحرك غداً في الخامسة صباحاً.

- حسناً سأذهب الآن، أراك غداً.

- انتظر ألن تشرب شيئاً! لقد جئت للتو.

- كلا لدى الكثير لأنجزه قبل الغد.

- حسناً كما ترى، سأنتظرك في المطار قبل الرابعة.

أسرعت إلى سيارتي فأدرتها وانطلقت عائداً لمنزلي. نظرت من سقف سياري-الشفاف- إلى السماء وكانت الشمس قد تمركزت تماماً في منتصفها مرسلةً بأشعتها الحارة التي تحاول قطع السحب البيضاء المتناثرة يائسةً أن تخفف من حدتها.

ربما لم تكن أشدّ يئساً من ذلك الغزال الصغير على جانب الطريق الذي يحاول المقاومة بين أنبياء مجموعة الضباع التي اصطادته من بين أفراد قطيعه بينما على الجانب الآخر كانت صحراء لا نهاية لها على مرمى البصر، بها قطعٌ من الضبار الذي - على عكس الغزال - ظل صامداً أمام هذه الظروف التي بالتأكيد لن تترك قطيع الضباع يعيش طويلاً.

تمعنت أكثر في السماء بعد أن أدرت نظام القيادة الآلية وأرحت ظهري ناظراً للأعلى، هل حقاً تظنُّ هذه الشمس أنها تمنحنا الحياة؟ هذه التي قضت على كل سبل الحياة في هذا المكان الذي ربما كان يوماً من الأيام بحيرة أو غابة مليئة بالحياة، من يدري هل كان الغزال سينجو من قطيع الضياع لو لم تقض الشمس على غابته، ومن يدري كم من الوقت سيظل الصبار ندى لها قبل أن يصبح منسيًا تماماً كهذا الطريق الذي لم يكن يرافق فيه صوت سيارتي إلا صياح الغربان.

هذا الكون رغم تعقيده وصعوبته إدراكه إلا أن هناك حقيقة واحدة لا يمكن إنكارها وهي أن هذا العالم سيكون دائمًا وأبدًا ضد رغباتك وأحلامك، ولن يتوانى للحظة عن تدمير كل طموحاتك ونظراتك لحياة آمنة مطمئنة.

لم يمر الكثير من الوقت قبل أن أجد نفسي في الجراج، صعدت إلى غرفتي سريعاً وأعددت فنجانًا من القهوة قبل أن أستقل المصعد مرة أخرى لأصل إلى معملي الذي كان يقع تحت الجراج بطبقين.

أمام باب المصعد يوجد ممر طویل مضاء بالأبيض المائل للزرقة وترى في نهايته باباً كبيراً يفتح بمسح ضوئي للعين اليسرى فقط، يفتح الباب ليضيء المعمل بالكامل بالإضاءة البيضاء ذاتها، على اليمين توجد شاشة عملاقة تُظهر كل ذكرٍ بداخل المعمل وفي محيطه وأمامها لوحة تحكم لا تقل حجقاً عن الشاشة لتحكم بكل شيء بدايةً من شدة الإضاءة ودرجة الحرارة والرطوبة مروزاً باظهار كافة المتغيرات والتطورات للأبحاث والتحاليل وحتى بأكثر الأمور تطرفاً وهو تفجير المبنى بالكامل.

بينما تجد على اليسار قفصاً شديداً الاتساع -يمكنك أن تسميه بالسجن- يشبع بداخله لأكثر من خمسين زنزاناً متوسطة الحجم أحتفظ في كل منها بعينات حية أجري عليها الأبحاث. نبتعد قليلاً للأمام لندخل المطبخ الصغير حيث «جوليا» وهي إنسانة آلية تقوم بتنظيف المعمل ورعايتها إضافة إلى وظيفتها الأساسية «إعداد القهوة».

بعد عدة أمتار معدودة على أصابع اليد الواحدة تجد قفص الحيوانات التي أقوم بتجربة نتائج أبحاثي عليها قبل أن أطبقها على من في السجن -وهم بالطبع ليسوا حيوانات.

بعد ذلك نقف أمام الجزء الأهم من المعمل، وهي الغرفة التي تحتوي على السبب الأساسي لوجود هذا المعمل، وكذلك وجودي على قيد الحياة.

أحضرت لي «جوليا» عينه دم لأحد الفئران التي كنت أجرب عليها شيئاً جديداً، لم أجده شيئاً مختلفاً عن التجارب السابقة قبل أن يموت الفار مجدداً كسابقيه.

صعدت إلى غرفتي مرهقاً ولكن لا مجال الآن للإرهاق أو التعب، فمامي رحلة طويلة ستكتشف لي الكثير كما ستكتشفه لك. دخلت غرفتي وألقيت بكمال جسدي على السرير الذي اعتاد عليّ كما اعتدت عليه، كلا لن أخلد للنوم الآن فلا يزال يومي طويلاً، يعني أولاً أن أصف لك غرفتي، هي كبيرة لدرجة أنها تحتوي حماماً ومطبخاً صغيراً إضافة إلى مسبح يكفي شخصين -أو كان يكفي شخصين، كما تحتوي قسماً خاصاً بخزانة الملابس، وقسماً خاصاً للمكتب والذي يوجد فيه جهاز الكمبيوتر الخارق الذي أحافظ عليه بكل شيء تقريباً، وأمامه شاشة كبيرة تعرض قنوات الأخبار العالمية إلى جانبها شاشة أكبر تعرض ما يحدث حول المبنى بالكامل.

طلاء الغرفة بالكامل باللون الأسود القاتم والذي بفعل الإضاءة الخافتة يتتحول إلى الأزرق الداكن كسماء صافية في ليلة اختفى فيها القمر. على الجدران صورة كبيرة لشقيقتي تقف بجانب أمي وأبي وأخي الأكبر، يقابلها على الجدار الآخر صورة «سلمى» والتي كان من المخطط أن تقاسمي هذا السرير الذي استكى من قسوة وخشونة عظامي.

قمت سريعاً لأسكب القهوة التي أعدها لي «بيلي» وهو الإنسان الآلي المسؤول عن نظافة هذا البيت والذي كانت قهوته حانياً مقرفة لدرجة أنني لم أشربها قط. أعددت واحدةً لنفسي لأشربها قبل أن أنهي ذلك التحليل على عينه دم الفار المسكين الذي مات منذ قليل، دونت النتائج لكي أراجعها بعد عودتي من موسكو، لكن الان عظامي تصرخ بشدة من الألم وعيناي تكاد تتورم من قلة النوم.

أرحت ظهري إلى الكرسي ورفعت ساقي لأعلى المكتب، أشرت إلى

النافذة ففتحت الستائر لأجد القمر قد اكتمل وانتصف في السماء، لقد تأخر الوقت ومعدتي لا تحتمل قطرة أخرى من القهوة خاصة وأنني لم أذق الطعام منذ عدة أيام لأسباب لا تهمك.

بدا القمر أمامي -على الرغم من قبحه الشديد وجموده وسخافة مظهره الذي يتغزل به الحمقى والمنافقون- هادئاً وصافياً، مع تسلل أشعته الصامدة رفقة النسيم اللطيف بين أوراق الشجرة التي تكاد تكمل عقدها العاشر أمام منزلي. أغمضت عيني لأرتاح قليلاً، فتدفقت إلى عقلي سيل من الذكريات والأحداث خلال الخمس سنوات المنقضية، حاولت منعها ببيأس وضعف كعجوز بلغ السبعين تعثت به أيادي الفتيات الشابات في أحد الملاهي الليلية، فاستسلمت لها تماماً وبدأت السود في التصدع لتفسح المجال لتلك السيل.

تذكر أنك حملت رواية عندما يعزف الشيطان حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهر لك .

三三三

(۲)

الأمس، القريب

- هل ما يزال هذا الكسول نائماً!

- نعم يا أمي، ما يزال مقلوبًا كالسيارة المحطمـة.

- ألم يكن نائما طوال اليوم أمس، يا إلهي هذا يوم تخرجه ولا يزال  
نائما! أيقظيه الآن حبيبي.

- كلاً أيقظيه أنت فهو لا يحيط أن أوقظه

- جميعكم مدللون بطريقه لا تصدق! هيا يا كسول فالساعة الان

الواحدة ظهراً.

تحفّقت من هاتفي لأرى أن الساعة ما تزال التاسعة...

- أمي، هذه الحيلة أصبحت من الثلاثينيات «والغريب حقاً أنها ما تزال فعالة» اتركيوني وشأنني فأنا حقاً متعب ورأسي محطم من الصداع.

- أنت متعب من كثرة النوم، هيا قم قبل أن أرشك بالماء.

- أمي! أغلقي الباب من الخارج واتركيني وإلا سأحطم لك طقم الكاسات الذهبية التي لم نشرب فيها أبداً.

- لا يريد هذا المدلل أن يقوم ليرانى؟

قامت قافراً من السرير بمجرد أن اخترقت هذه النبرة التي لم أسمعها طيلة السنين الماضيتين إلا في الهاتف، لم لا وهو أخي الكبير، قدوتي الذي لم احتذ به أبداً لن أحكي عنه الكثير الآن، ربما فيما بعد بعد عناق طويل سأله :

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ أن كانت المسكينة تحاول إيقاظك، هيا سأنتظرك في الخارج لشرب القهوة ونتحدث قليلاً.

- انتظري أنت ولا تهتم.

ألقى إلى بعلبة دواء زجاجية أثناء خروجه من الغرفة وتابع:

- خذ هذا سيجعلك تستفيق سريعاً وتخالص من الصداع.

خرج ملاك متجهاً إلى الحديقة الخلفية، بينما أخذت كبسولة من الدواء كي استفيق، رأيت ليلي تقف خلف باب الغرفة ويبدو عليها الانتظار، ناديت عليها:

- ليلي، ليلي! أين أبوك؟

أجابت بابتسامتها التي تخجل الشمس أن تشرق في ظلها:

- ذهب باكراً إلى عقنا محفوظ ولا أظنه سيعود الآن.

- انتظري، ماذا كنت تفعلين بجوار غرفتي؟

أجابت ضاحكة:

- لا شيء. لقد طلبت مني أبي أن أظل هنا حتى تقوم لتأكد أنك مستيقظ.

رميتها بالوسادة ضاحكاً

- أنتم بالغون حقاً في هذا، لقد استيقظت كما ترين، ما رأيك بفنجان من القهوة واذهب بي به عند ملاك حتى الحق به.

- حسناً. « واستمررت باسمه بشكل يجبر الشيطان على الابتسام » ولكن قد ثقل الحساب، أنا أحذرك بشدة.

- ساعطيك الكثير من النقود عندما أكون مليارديراً مثل ملاك، لا تقلقي.

- قم من السرير أولاً ثم تحدث عن ملاك، أيها الكسول.

خرجت أمامي بينما كنت أعد ما سأرتدي بعد أن أخذ حمامي الصباحي. بالمناسبة، أخي ملاك فاحش الثراء بشكل لا يعقل، لو أنفق يومياً ما نفقه نحن الأربعة لمدة مائة عام لظلل مليارديراً. لكنني لم أكن أحب الثروة بشكل عام على الرغم من إيماني الشديد بأنّ ما من شيء لا يباع أو يشتري.

دقائق حتى كنت جالساً أمام ملاك على طاولتي الخاصة في الحديقة الخلفية وأمامنا فنجاني القهوة، محاطين بشجيرات الريحان وفوقنا شجرة كافور كبيرة جداً، ربما هي أكبر مني سنًا.

لم ينتظرنـي ملاك حتى أجلس قبل أن يبدأ في حديـثه:

- هل كان الأمر حـقاً بهذه الصعوبة؟ أربـعة عشر عامـاً حتى تحـصل على شهادـتك؟

- ربـما لم يكن صعبـاً، لا أدري، ولا أدري حـقاً ماذا سأفعل بعد أن حـصلت على هذه الشهادـة.

- ستـمارس مهـنـتك مـثـلاً! تـصـبـح طـبـيب أـبـحـاث مـثـلـي ربـما! تـنـزـوج وـتـكـوـن أـسـرـة صـغـيرـة، تـفـعـل أيـشـيء لا يـجـعـلـك تـقـضـي أـغلـب الـوقـت نـائـقاً هـكـذا.

- عـزيـزـي أنا لن أـكون مـثـلك أـبـداً، وـصـدقـني لا أـريدـ. لا أـقصد الإـهـانـة حـقاً، ولـكنـ أـنتـ فـي مـوـضـع شـهـرـة يـجـعـلـني حـقاً أـخـافـ منـ أنـ أـكونـ مـكـانـكـ. قـبـلـ الـخـوضـ فـي هـذـه السـخـافـاتـ، كـيفـ حـالـ نـدـيـ وـمـلـكـ.

- بـخـيرـ، «ـمـلـكـ» قد أـتـقـتـ عـامـها السـابـعـ الـآنـ وـتـرـكـتـهـما فـي لـندـنـ قـبـلـ أنـ أـصـبـجـهـما مـعـيـ غـدـاً إـلـى بـارـيسـ.

- لـمـ؟

- هـذـا ماـ كـنـتـ أـرـيدـ أـنـ أـحـادـثـكـ فـيـهـ.

- لـاـ لـاـ اـنـتـظـرـ، أـنـاـ أـعـلـمـ أـنـ هـنـاكـ مـؤـتمرـاـ طـبـيـاـ سـيـعـقـدـ فـيـ بـارـيسـ، وـلـكـنـ لـمـ أـعـلـمـ أـنـكـ سـتـكـونـ هـنـاكـ.

- وـهـلـ سـيـعـقـدـ مـؤـتمرـ لـلـكـشـفـ عـنـ أـحـدـثـ عـلاـجـ فـيـ الـعـالـمـ وـالـذـيـ سـيـحـدـثـ طـفـرـةـ فـيـ الطـبـ الـحـدـيـثـ، وـلـنـ أـكـوـنـ فـيـهـ أـيـهـاـ العـبـقـرـيـ؟

- أـتـرـىـ؟ هـذـاـ مـاـكـنـتـ أـقـصـدـهـ، وـتـرـيـدـنـيـ أـنـ أـصـبـحـ مـثـلـكـ، عـزيـزـيـ أـنـاـ أـعـشـقـ النـوـمـ.

- كـفـاكـ سـخـفاـ وـاسـمـعـنـيـ بـتـمـعـنـ.

أنـهـيـتـ فـنـجـانـيـ وـأـرـحـتـ ظـهـرـيـ لـلـخـلـفـ وـنـظـرـتـ إـلـيـهـ بـجـدـيـةـ - بـقـدـرـ

استطاعتي - لاستقبل كلماته.

- قبل حوالي تسعة أعوام كنت أقوم بدراسة حالة خاصة، رجل أصابه طفيلي مجهرٍ يعيش بداخل إحدى الأشجار في مزرعته، يتغذى على كل شيء قد يؤذي الشجرة سواء كان فيروساً أو بكتيرياً أو حتى فطريات، لا يترك شيئاً، فيجعل هذه الشجرة تنمو بشكل عجيب، وكان الزمن يتتسارع فقط في هذه الشجرة. ولكن هذا الطفيلي في حالة الرجل كان فتاكاً، مات الرجل مباشرةً بعد أن أخذت عينه من دمه لأدرك أنَّ هذا الطفيلي كان يعيش بداخله.

- ثم؟

- بعد استنساخه عشرات المرات وتوفير كل الظروف البيئية له حتى أعلم في أي ظرف قد ينتشر، وحقنته في أحد الفئران.

- هل مات؟

- ميته بشعة، بعد أن ظل نشطاً لمدة يومين بدأ الفار في أكل جسده بطريقة مرعبة وكأنه لا يشعر بالألم.

ظهر الاهتمام وقد طفى على كل شيء بداخل رأسِي الآن

- جربته على كل شيء تقريباً، القرود بالتحديد كانت الحلقة الأغرب والأبرز.

- كيف؟

- فالإناث لا ينشط فيها الطفيلي، بل يسكن الرحم متغذياً على بويضاتها ومن ثم ينتقل إلى الذكور خلال التزاوج. وبالتالي كُنَّ غير قادرات على الإنجاب. بينما الذكور كانت تنشط لديهم غرائز العنف المفرط، فمرةً أجد قرداً يأكل زوجته، وأخرى يقتل صغاره ويظهر عليه الانتشاء.

- ولم قد يحدث هذا؟ ما الذي قد يتغذى عليه الطفيلي ليجعلهم

هكذا؟

- هنا كان مربط الفرس، بعد تشريحه لأدمغته، رأيت أن القروود تفقد جزءاً في الدماغ هو المسؤول الرئيسي عن الوعي والإدراك.

- وكيف انتقل هذا الطفيلي إلى الرجل؟

- طفرة جينية بالتأكيد، لكن من المفترض إلا ينتقل من الحيوانات أو النباتات إلى الإنسان، فقط يجب أن يدخل الجسم مباشرةً بالطرق التي تعرفها، الفم والدم والاتصال الجنسي.

- هذا غريب.

- ومرعب كذلك، هذا الطفيلي يتغذى على أنسجة خلايا في الجسم، يقوم برصد كل التحركات داخل المضيف، يتغذى ويتكاثر وينتقل من دون رادع.

- هل قلت حقاً أنه يتغذى على الخلايا الأكثر نشاطاً؟

- تخيل معي مريضاً بالسرطان، تقوم الخلايا السرطانية بالانتشار دون، ثم يأتي هذا الطفيلي ليتغذى عليها، كلما نشطة وتتكاثرت، سار معها الطفيلي خطوة خطوة.

- وبهذا يزيد عمر مريض السرطان؟

- بالفعل، فهو لا يبدو على الإطلاق كما لو كان مريضاً، فالطفيلي قام بعمل الجهاز المناعي وقضى على الخلايا.

قمت بالتفكير قليلاً بينما كان «ملوك» يرتشف آخر رشفة في الفنجان وتبعد عليه النسوة التي تظهر على وجه المحامي الذي فاز بقضية القرن، ثم تابع:

- وليس مرض السرطان فقط، بل كل شيء تقريباً، يهاجمك فيروس نشط، يقوم الطفيلي بالقضاء عليه ثم انتهت القضية.

- وماذا بعد أن يقضي الطفيلي على الفيروس، علام سيتغذى؟
- هنا تكمن المشكلة الكبرى التي ظلت تمنعني من الكشف عن هذا الطفيلي.
- أفهم من ذلك أنه سيبدأ بالتغذى على الخلايا النشطة في الإنسان؟
- تماماً كما حدث مع القرود، مع فروقات بسيطة للغاية، بينما كان البعض أذكياء جداً فسيدمّر دماغهم، والبعض أقوىاء فسيدمّر عضلاتهم، لذلك عذلت نسخة خاملة من هذا الطفيلي لا تتغذى على خلايا الجسم بمثل سرعة الطفيلي الأصلي.
- لتسخدمه كلناج ربما؟
- بالفعل، بمجرد أن يقضي الطفيلي على الأمراض بداخلك، تأخذ الطفيلي الخامل، لكن بالتأكيد هذا ليس حلاً نهائياً.
- أرى ذلك، هل جربته؟
- بالتأكيد، لم يكن الوضع مطمئناً بالشكل الكبير، لكنه مبشر إلى حد ما، لم تمت القرود على الأقل أو يأكل بعضهم بعضاً... أنه فنجانه وتابع.... فقط تتأثر خلاياهم الحسية، فلا ألم ولا خوف ولا شفقة ولا جوع ولا شهية.
- اعتدل في جلستي واجحظت عيناي حتى كادتا تخرجان من مكانهما....
- يا إلهي هذا رائع! قلت بصوت عال
- وما الروعة في ذلك؟
- انظر إلى كم الحمقى الذين يمكنك أن تخلص منهم، الملايين من الحمقى والأغبياء والفقراء عديمي الفائدة.
- حسناً فلنبدأ بك إذا.... قالها بينما لم يستطع منع ضحكاته.

- بالطبع سأكون سعيداً يا رجل.... شاطرته الضحكات قبل أن أتابع  
.... هل هناك من يعلم عن هذا الطفيلي حتى الآن؟
- للأسف نعم، وينتظر مني أن أقدمه للعالم غداً في باريس كعلاج  
دائم للسرطان فقط، لكن لا أحد على الإطلاق يعلم ما تناقشنا فيه.
- لا تقلق، اعتبر أن أحداً لا يعلم.
- قبل أن أنسى، خذ هذا.
- ما هذا المفتاح؟
- معملك الجديد، ليس بعيداً من هنا.
- أنت تمزح حقاً، يا لك من ثري!
- عزيزي أنت خليفتي في الملاعب، صحيح أن المعمل ليس فريداً من  
نوعه لكنه سيعجبك.
- انتظرا حتى ترى سلمي هذا! يا إلهي أنت حقاً اسم على مسمى.
- ألا تنويان الزواج قريباً؟ هذه الفتاة ظلت كثيراً تنتظرك.
- بالتأكيد سنتزوج قريباً، لكنني حقاً لست مستعداً لخطوة مثل تلك  
الآن. «تنهدت طويلاً وتابعت» أنا غير قادر على تحمل المسؤولية على  
الإطلاق، فلننقل في هذه الفترة على الأقل.
- ومتى ستكون قادراً؟ أنت بعمر الاثنين والثلاثين، هل ستنتظر حتى  
تتم الأربعين أو ربما الخمسين؟ وهل ستنتظر المسكينة؟
- لا تشغلي بالك بي يا عزيزي، فأنا أكثر الناس ارتياحاً بما أنا فيه....
- قاطعنا ليلى:
- هل أعجبتك القهوة يا عزيزي؟
- أجبت:

- بها بعض المراة كأنك وضعت بها دواء للسعال أو....
- قاطعني:
- أنا أسأل ملاك، ليس أنت أيها الكسول!
- ضحكوا مني قليلاً قبل أن يثنني ملاك على قهوتها وأكمل
- أذاهبة إلى الخارج؟
- نعم، لدينا حملة لبناء أسقف في إحدى القرى، وسننصل العمل بعد يومين على الأكتر.
- كم أنت جميلة حقاً، هل تحتاجين لتبرع؟
- أومات برأسها بخجل شديد
- تفضلي يا عزيزتي.
- وأنت؟ ألن تتبرع ولو لمزة واحدة في حياتك؟
- أتبرع لمن؟
- للفقراء مثلاً!
- فليذهبوا للجحيم.
- انطلق في أخي بعنف مصطنع
- فلتذهب أنت إلى الجحيم!
- لا تشغل بالك يا عزيزي، أنت فقط لست معتاداً على سخافاته تلك.
- لا ليس الأمر كذلك، ولكن فكري في الأمر يا فتاة! لماذا أدفع أموالاً لأشخاص حقاً سيصرفونها في غير محلها! أو لماذا قد أبني لهم سقفاً؟  
هذا ليس دوري ولن يكون أبداً دورياً.....
- ولكن ماذا لو كنت أنت مكانهم!!

- أنا لست مكانهم، وحـًا لو كنت كذلك لما انتظرت إحسانًا من أحد.
- عزيزتي اذهبى حتى لا تتأخرى، ولا تترددي لحظة في طلب ما تحتاجين مني.
- أشكوك عزيزى، أراكما لاحـًا.
- ضاحـًا لفتـث انتباـهـه - هل ترى كـيف تنـظـرـ لي؟
- شاطـرـنى الضـحكـ - من المفترض أن تـقـتـلـكـ حـقـاـ علىـ كـلامـكـ هـذـاـ.
- دعـنا نـكـملـ فقطـ الحـدـيـثـ عنـكـ.
- صـدقـنـى لاـ أـسـطـيعـ، أـرـيدـكـ فـقـطـ أـنـ تـرـىـ مـعـمـلـكـ الـجـدـيدـ لـأـنـيـ سـأـذـهـبـ لـزـيـارـةـ بـعـضـ الـأـصـدـقـاءـ قـبـلـ أـنـ أـسـافـرـ.
- لـاـ أـسـطـيعـ أـنـ أـمـنـعـ وـلـكـ أـلـاـ تـرـىـ أـنـكـ لـمـ تـلـقـطـ أـنـفـاسـكـ حتـىـ؟
- عـزيـزـىـ أـنـاـ هـنـاـ لـأـهـنـئـكـ لـاـ لـكـ أـلـقـطـ أـنـفـاسـيـ. اـعـذـرـنـىـ فـعـلـيـ الـذـهـابـ.
- حـسـنـاـ، فـلـتـنـتـبـهـ لـنـفـسـكـ.

دقائق بعد أن ذهب «ملاك» ليقضي بعض زياراته كانت كافية لتشغل بي سلمى، ذكرتني بموعدنا والذي كان من المفترض أن يكون بعد الظهيرة ولكني كعادتي، نسيت.

أعددت لنفسي فطوراً خفيـفاً قبل أن أخرج كذلك، وقفـتـ اـنـتـظـرـ «سلمى» في المكان الذي كانت تحـبهـ نـظـرـاـ لـتـفـاهـتهاـ. كـعاـدـةـ مـعـظـمـ الفتـيـاتـ. وـالـذـيـ كـانـ مـطـعـماـ فـاخـرـاـ يـمـتـلـكـهـ أـحـدـ أـفـرـادـ عـائـلـتـيـ.

- عـزيـزـىـ! لـاـ أـصـدـقـ أـنـاـ أـمـضـيـنـاـ سـوـيـاـ كـلـ هـذـهـ السـنـوـاتـ حـقـاـ.
- بالـفـعلـ، هـذـهـ مـدـةـ مـعـقـلـ تـصـدـيقـهاـ. كـمـ أـمـضـيـنـاـ سـوـيـاـ؟ ... سـأـلتـ
- وأـنـاـ أـصـطـنـعـ الـبـلاـهـةـ
- ١٥ـ عـامـاـ يـاـ وـقـحـ... رـذـتـ بـعـبـوسـ.

- على مهلك فأنا أمازحك يا ذات الشفتين... مبتسمًا غازلتها حتى أحمرت وجنتها.
- ألا ترى أنه حان الوقت لنتزوج؟
- وألا ترين أن خمسة عشر عاماً كفيلةً تماماً لئلا تسأليني مثل هذا السؤال؟
- ومتى سيحدث ذلك؟ أجبني حتى لا أدخل شوكتي هذه في .....
- في ماذا؟ تهذبي يا فتاة.... قاطعتها ضاحكةً.
- في أنفك أيها الواقع. ضاحكةً أردفت.
- حسناً، أعتقد أننا سنتزوج هذا العام، فقط انتظري حتى ينهي ملاك جولته ويعود مرةً أخرى ونقيم الزواج.
- بهذه البساطة؟ تبا لك! خمسة عشر عاماً وتعرض عليّ الزواج الآن.
- حبيبتي لقد أصبحنا شائخين بالفعل. تظنين أنني كنت قادرًا على ذلك من قبل؟
- كلام لا أظنُ أنا واثقةً أنك حتى اللحظة لا تستطيع تحمل المسؤولية.
- لم أقل شيئاً، أليس كذلك؟ ... ردت بأسف.
- دعنا من هذا الآن، ماذا عن «ملاك»؟ كنت تقول شيئاً عن مؤتمر غداً
- بلى، سيكشف عن علاج جديد في باريس غداً في مؤتمر عالمي
- وأنت يا «بطلي» ألن تكشف عن شيء في حياتك؟ ... سالت متهكمة.
- ألم أكشف لك من قبل؟ لم أتمالك نفسي فضحتك قبل أن تضربي بعنف على كتفي.
- تبا لك! تبا لك! .... كانت تصححه حتى انتبه الناس لنا فقاطعتها.

- لقد جاء اليوم من لدن المناسبة وأهداني معه معملاً بمناسبة تخرجي.  
- تمزح! لو لم يكن متزوجاً لعرضت عليه الزواج بالفعل، يا لخيبة أملني.

- ضاحكاً أجبتها - سيخيب أملي مجدداً اطمئني.

- هل رأيت ذلك المعامل بالفعل؟

- كلام، ما كنت لأذهب بدون صاحبة الجلالة، سأخذك بعد قليل لا تقلقي.

سادت لحظات من الصمت بينما كانت النادلة تحمل الأطباق الفارغة، ستحضر لي القهوة أعلم بذلك، أنا لا أذكر حتى متى كانت آخر مرة طلبت فيها شيئاً هنا.

- لقد كبرت يا عزيزي، واجتاحت التجاعيد وجهك.

- كفي عن مغازلتي، لقد أحقرت وجنتي بالفعل.... متهكمأً أجبتها.

- أتعلم! أنا حقاً أُعشق تجاعيد وجهك، طيلة السنوات الماضية وأنا أراك تكبر وأكبر معك....

دمعت عيناهَا وابتسمت حتى تزيّن وجهها الجميل بابتسامتها الأجمل. أمسكت يدها ونظرت في عينيها الممتلئتين بالدموع، قبل أن تستكمل

- ما زلت أذكر يوم التحقت بالكلية وشاهدتك تقف وسط أصدقائك، مرّ على ذلك اليوم الكثير حتى أنّ ذقنك الحمراء التي أُعشقها بدأت تغزوها شعيرات بيضاء أكثر أناقةً وجمالاً، أذكر كذلك كيف كنت تضحك بصوتك الجهوري الملفت وهيئتك المغربية وصدرك العريض وقامتك المشوقة وحاجبيك الذين زينا جبها بك البيضاء. انظر لنفسك الآن ..... تابعت ضاحكة دون أن تتوقف دموعها..... لم تتغير فما زلت تافهاً وغبياً كما كنت.

- تافهاً وغبياً؟ يا لك من وقحة بحق..... قلت ذلك ولم تفارق البسمة

و جهـيـ.

- حسـنـا لـنـتـوـقـفـ عـنـ هـذـاـ، مـتـىـ سـيـقـامـ المؤـتمرـ؟

- أـيـ مؤـتمرـ؟

- مؤـتمرـ أـخـيـكـ!

- صـحـيـحـ، غـدـاـ فـيـ تـعـامـ التـاسـعـةـ مـسـاءـ.

- وـمـاـذـاـ سـتـفـعـلـ حـتـىـ ذـلـكـ الـوقـتـ؟

- لـأـعـلـمـ، رـبـماـ سـأـنـامـ حـتـىـ الغـدـ.

- وـمـتـىـ سـنـذـهـبـ لـمـعـمـلـكـ؟ـ أـنـاـ حـقـاـ أـحـتـرـقـ مـنـ أـجـلـ رـؤـيـتـهـ.

- نـعـمـ نـعـمـ سـنـذـهـبـ حـالـمـاـ تـنـكـسـرـ الشـمـسـ قـلـيلاـ.

بعـدـ الـكـثـيرـ مـنـ تـوـافـهـ الـحـدـيـثـ وـسـفـائـهـ الـقـوـلـ قـمـنـاـ لـنـرـىـ ذـلـكـ الـمـعـمـلـ.

- هـاـ هـوـ ذـاـ.ـ تـفـضـلـيـ يـاـ ذـاتـ الـجـالـلـةـ....ـ مـبـتـسـمـاـ أـشـرـتـ لـهـاـ بـالـدـخـولـ.

- يـاـ إـلـهـيـ!ـ هـلـ حـقـاـ أـهـدـاـكـ «ـمـلـاـكـ»ـ هـذـاـ!ـ يـاـ لـسـوـءـ حـظـيـ...ـ مـتـهـكـمـةـ  
نـظـرـتـ إـلـيـ.

صـدـقـيـنـيـ لوـ كـنـتـ مـكـانـكـ لـقـلـتـ الـأـمـرـ ذـاـتـهـ.

دـخـلـنـاـ وـأـغـلـقـتـ الـبـابـ وـبـيـنـمـاـ كـنـاـ نـتـجـوـلـ فـيـ الـأـرـجـاءـ اـسـتـخـدـمـتـ فـتـاتـيـ  
الـحـاسـةـ السـادـسـةـ الـتـيـ وـهـبـهـاـ اللـهـ لـكـلـ فـتـيـاتـ الـكـوـكـبـ.

- مـاـ هـذـاـ؟ـ أـلـاـ يـبـدـوـ طـلـاءـ هـذـهـ الـغـرـفـةـ غـيـرـ مـتـنـاسـقـ مـعـ باـقـيـ الـغـرـفـ؟ـ

- أـيـنـ؟ـ أـعـتـقـدـ أـنـهـ كـسـائـرـ الـغـرـفـ،ـ لـأـرـىـ اـخـتـلـافـاـ!

- تـعـالـ تـعـالـ،ـ اـنـظـرـ هـنـاـ.

- يـاـ إـلـهـيـ مـاـ هـذـاـ!

- رأيت؟

- كلا يا تافهة، إنه الأبيض ذاته.

- ألمعن النظر أيها الأعمى! كيف لا ترى الفارق؟ هذا اللون هو درجة من درجات الأبيض وليس الأبيض ذاته في سائر المعلم!

- صغيرتي أنا لا أرى أي فارق! وحتى لو كان هنالك فارق فما المهم في ذلك!

- سأخبرك، هذا الجدار مثلاً به درجتين من الأبيض، وتبدواان متناسقتين للغاية. بينما ذلك الحائط هناك هو درجة واحدة من الأبيض، والحائط المقابل له هو الدرجة الأخرى. كفاك بلاهه ولا تنظر لي هكذا!!

لم أكن أنصت لها على الأطلاق بينما كانت تحاول شرح الفارق بين الأبيض وذلك اللون الذي لا أعرف كيف ينطق اسمه، بل كنت أطيل النظر في عينيها الزرقاويين كامواج بحر هادئ تشفعها سفينه في ظلمات الليل، وشفتيها الممتلئتين كحببتي كرز شديدتي الإحمرار.

لم آبه لهرائها عن الألوان فاعتصرتها بين ذراعي لتشهد شهقة كادت أن تخطف أنفاسي معها، وشعرت بدقائق قلبها الصغير يرتجف من المفاجأة، فتشبتت بي وهدأت أنفاسها حتى شعرت بقطرات ساخنة تسيل على صدري. ربت على كتفها بحنان على عكس شدة التفاف ذراعي حول ضلوعها، فما كان لجسدها الصغير إلا أن يرتكب بين قسوة ذراعي الملتقة من حولها، وبين حنان التمسكه في دفء صدري.

- خمسة عشر عاماً أيها الغبي، خمسة عشر عاماً وأنا أحلم باليوم الذي أراك فيه في مكان مثل هذا.

لم أرد حضاً أن أسكتها لكتني كنت بحاجة لمثل هذا العناق، فتركتها بين ذراعي لتقول ما تشاء، بينما كنت حضاً أشعر باليم يجتاح رأسي.

## همست في أذنها بلطيف

- صغيرتي! يجب أن نذهب، فكما تعلمين كلما تعانقنا هكذا لا تسير الأمور لنحو جيد.

- قل لنفسك! حسناً ولكن ألن تريني هذا الطابق؟

- لم أتفحصه، إنه البدرؤم! بالتأكيد سأجد فيه شيطاناً مثل ذلك الذي يمتلك مفاتيحاً في أصابع يديه كأفلام الرعب.

- كف عن المزاح، هيا تعال معى.

- حسناً يا لك من طفلاً مدلة.

أخذت يدها ونزلنا سوياً للطريق السفلي - والذى كنت مرتعداً من نزوله.

- هـ هو مفتاح الكهرباء، بالتأكيد لن يعمل.

- لقد أضاء، جبان أنت يا صغيري.

- حسناً حسناً كنت فقط أمزح، من البديهيّات أن الطابق السفلي إضاءته معطلة، وإن لم تكن كذلك فستتعطل عاجلاً أم آجلاً بينما نحن في الخارج.

على عكس ما كنت أبديه لها من خوف فقد كنت حقاً لا أريد إلا النوم في هذه اللحظة.

- عزیزی انظر هنک!

- يا الله ! إنها لوحة الكهرباء... «أحب حفنا اصطناع البلاهة أمامها»

- وما المدهش في لوحة الكهرباء يا سخيف، أنا أقصد ذلك الباب بجوارها.

كان يبدو باباً عادياً، لكنه بلا مقبض أو مكان للمفتاح، أخذتني من يدي للباب الآخر المقابل له - والذى كان له مقبض بشكل طبيعى - ويا

لجمال ما رأيت بالداخل، غرفة أحلامي وكان "ملك" كان يعرف أوصافها، طلاء أسود قاتم، إضاءة صفراء خافتة، سرير كبير وثلاجة تتناسب مع حجمه، حوض استحمام كبير يتسع لشخصين.

- ألم أقل لك لابد أن نذهب الآن. مبتسمًا قلت وأنا أمسك بيدها.

- حسناً ربما يمكنني البقاء لبعض الوقت. قالت بينما كانت تقترب من وجهي لأرى في عينيها نظرة كانت أبلغ من مائة كلمة.

بعد ساعات ليست بالقليلة استيقظت من نومي لأجد صغيرتي تغفو فوق صدرِي، وشعرها الطويل كذيل فريس أنهكه السباق ينسدل فوق ما تبقى من جسدي، كانت جميلة حقاً خلال نومها كما كانت أثناء نشاطها، همست في أذنها قبل أن أطبع قبلة فوق جبينها شديد البياض المكتسي بالحمرة الخفيفة، كزهرة تفتحت بعد ليلة طويلة انتظرت فيها ضوء الشمس....

- صغيرتي، هيَا بنا لقد تأخرنا.

- تبا لك أنا لا أمل منك.

- أعلم ذلك، أعلم تماماً.

- حسناً أبتعد يا سخيف، فلدي عمل صباحاً، لست عاطلةً مثلك، لا انتظر، لقد أصبح لديك عمل كذلك. قالت مبتسمة بينما كنا نستعد للخروج

- لا. لا أظن ذلك، لن أفتح هذا المعمل قبل شهر على الأقل.

- وكأنني سأتعجب، حسناً هيَا بنا.

وصلتها إلى حيث كانت تعيش بمفردها، نعم هي وحيدة تماماً، والداها يعيشان في أستراليا بينما تلك الغبية تمسكت بي في هذا المكان، لم يكن ذلك قرارها الغبي الأول، كانت تحب حقاً مساعدة من لا يستحقون المساعدة. انظر هناك! هذه عيادتها الخاصة، أنفقت من

الأموال كثيرها حتى تفتتح عيادةً لعلاج من يعانون مصيرهم، بالطبع لا تأخذ أموالاً منهم، فهم لا يملكون إلا الجهل - بجانب فقرهم بالطبع.

عدت للمعمل فأخذت حماماً سريعاً قبل أن أعود إلى البيت، كان الليل قد ابتعد قليلاً عن الانتصاف وغداً هو اليوم المنشود الذي سيحتل به «ملك» مجال الطب الحديث في العالم. كان والدai نائماً بينما كانت «ليلي» في تلك الحملة الغبية لبناء الأسفِف لبعض الطفيليَّات البشريَّة، مهلاً هذا يبدو لك وقحاً، أليس كذلك؟ ربما، لكن صدقني هذه هي الحقيقة.

أعددت فنجانًا من القهوة تفوقت به على نفسي - لكنني لم أكن لأتفوق أبداً على «ليلي» في هذا. وجلست متابعاً للأخبار المحيطة بهذا المؤتمر. يا إلهي رأسي يكاد ينفجر من الصداع، أشعر كأنه وضع عنوةً بين مطرقة وسندانٍ كالاهما من الفولاذ. لقد أعطاني «ملك» عبوةً بها بضع أقراص للصداع، أين وضعتها؟

ليست تحت الوسادة كما لم تكن فوق المكتب، ربما في الشرفة، يا إلهي ليست هنا أيضاً! نعم نعم غرفتي تبدو كقبو منزل هُجر لعشرين السنين أعلم بذلك. أخيراً ها هو.

في ذلك المكان السحري الذي أجده فيه كل ما أضعته، أتذكر كيف وجدت مفتاح السيارة وكذلك مشروع التخرج بالإضافة إلى الكثير من الملابس التي اتهمت أمي بهتانًا وزورًا بأنها استخدمتها كأقمصة للمطبخ، أو أن الحمقاء الصغيرة أعطتها لتلك الجمعيات الشريرة لتتبرع بها لأولئك الفقراء - لم أقل نفايات أو فطريات كما لاحظت لأنني مرهف الحس وتابةً مثلَّ تماهاً رأيت؟

نعم يا عزيزي إنه ذلك المكان الذي لطالما فقدت به ولا عتك وعلبة سجائرك الرخيصة وملابسك الداخلية، إنه تحت السرير. ربما إن بحثت قليلاً سأجد مستقبلي كذلك، كانت تلك مزحة سخيفةً أعلم. ابتلعت قرضاً آخر مع فنجاني الذي انتظرني لدقائق، وجلست في الشرفة

متابعاً الأخبار حول مؤتمر الغد على حاسوبى الخاص.

«عالم مصرى لا يمل من تحقيق المستحيل، ربما هو علاج لنقص المناعة أو التهاب الكبد الوبائى أو حتى السرطان، شاهد قصه حياة عالم مصرى يعلن عن مؤتمر يكشف فيه عن اكتشاف سيغير الطب الحديث للأبد، تعرف على حياة العالم المصرى «ملاك محمد».....».

يبدو هذا عنواناً مغرى، هؤلاء الصحفيون هم أسوأ شيء في الحياة - بعد القهوة الممزوجة بالسكر- يختلفون القصص فقط ليجعلوا الحمقى أمثالنا يقرؤون، كم مرة دخلت على موقع نشر «شاهد قبل الحذف ماذا فعلت الفنانة بعدها وجدت زوجها يخونها مع لاعبة كرة سلة» فتدخلت تجدد الخبر يتحدث عن انفجار بالوعة في شوارع المكسيك .

بغض النظر عن أنه لا وجود لفنانات أو للاعبات كرة سلة، وكل النساء فاشلات حتى في توافقه الأمور.

«ملاك محمد عيسى الألفي، طبيب أبحاث مصرى من مواليد عام تسعمائة وسبعة وثمانون بعد ألف لوالدين مصريين يعملان في مجال الطب، فالوالد جراح أعصاب والوالدة جراحة قلب، نشأ «ملاك» وإخوته نشأة ميسورة، فالوالد «محمد» وزوجته «هند» كانوا مالكين لمستشفى استثماري بمنطقة راقية في محافظة القاهرة. ولأن العائلة طبیة بالكامل فقد تخرج كل من «ملاك» وأخوه في كلية الطب بينما ما تزال شقيقته الصغرى تدرس في الكلية.

على عكس «ملاك» الذي تخرج وحصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه قبل أن ينتصف عقده الرابع، عانى شقيقه الذي لا يمتلك عرقية ولا طموح أخيه ليتخرج في نفس الكلية. سافر «ملاك» ليتّم دراسته في الولايات المتحدة ليحصد هناك جوائز تفوق ومديحا من كل أساتذته، وبسبب نبوغه النادر والفريد من نوعه إضافة إلى أسرته شديدة الثراء ظهر كباحث في جامعة مرموقه، وتدرج بال المناصب حتى حصد أعلى درجة في تلك الجامعة بالتوازي مع افتتاحه لعدة

مستشفيات في عدة ولايات.

يا رباه! من كتب هذا المقال، أهي؟ أعتقد أن هذا يكفي، ربما أنا فاشر لتلك الدرجة التي جعلت موقعها أمريكيا يقول هذا. اثنان وثلاثون عاماً، هذا رقم ليس بالهين أبداً، ربما أكبر إنجازٍ حققه لهذه البشرية هي أنني لم أفعل شيئاً. تزامنت الرشفة الأخيرة من فنجاني مع ارتخاء جسدي بالكامل فوق الأرض.

\* \* \*

(٣)

### المؤتمر

- صبري، أين أنت الآن؟

- بانتظارك في صالة الانتظار، لا تتأخر.

- حسناً أنا في طريقي.

كنت أشعر خلال طريقي بكراهية طفت على أي شيء، سألتقي بذلك الحشرة أخيراً، كم كنت أتعنّى أن أجده حيناً حتى أشفى غضبي منه، لكن لا بأس، ربما أجده ممزقاً أو محروقاً أو مشوهاً، ربما يشفى ذلك غليلي.

وصلت قبل موعدي بدقيقةٍ كانت كافيةً لأترجل من السيارة وأصل لصبري في صالة الانتظار.

- تماماً في موعدك، كيف حالك؟

- هل أمامنا وقت؟

- نعم، خمس عشرة دقيقة... بتأقِفِ ردّ صبري

- يا فتى، فنجاناً من القهوة بدون سكر، وأسرع قليلاً.

- لا تحضر لي شيئاً، فقط أسرع حتى لا تتأخر.
- صبري، كيف تعرّف رجالك على جثته؟
- لم يفعلوا، لكن أحد المزارعين وجد جثة رجل في عقده الرابع مصادفة بقطيع رأسئ في الدجاج يحمل معه صورة عائلية لأخيك.
- لم برأيك قتلوه؟ هل لديه ما يهمهم بهذه الدرجة؟
- لا يهم، المهم فقط أننا وجدنا سبيلاً للوصول لهم، فكما تعلم هو ليس إلا أداة لهم، وباستقصائنا له سنعرف من هم.
- كان الصبي قد أحضر القهوة وبدأت أشربها في عجلة على غير عادتي
- ألم يترك لك ملاك شيئاً نستدل منه؟ بالتأكيد كان يعرف من يتربصون به.
- بالتأكيد كان يعرفهم، لكنك تعرف ملاك أيضاً، كان ليموت على أن يتسبب في مقتل غيره. وقد حدث.
- حسناً، هيا بنا.

ذهبنا لسلم الطائرة والتي كانت مخصصة لكتار رجال الأعمال فقط، فقط أنا وصبري وبعض عشرة أشخاص، جلس كل في مقعده، حاول صبري أن ينام بينما استغرقت في التفكير فيما سأفعل عندما أصل إلى موسكو.

لم يكن وقتاً مناسباً على الإطلاق حتى أتذكرة سلمي، لكن هذا البدين الجالس هناك كان يداعب حبيبته بنظراتٍ أشعرتني بالغثيان، أو الغيرة والحدق. كان من المفترض أن تكون سلمي معي الآن، نداعب أطفالنا الأغبياء الكسالي، لكن ذلك لم يحدث.

أغمضت عيني على دراية أنني لن أخلد للنوم، لكن لم أرُد أن أرى ذلك الأحمق يغازل حبيبته أمامي. الأبله، يظن نفسه حقاً سيحصل عليها في

النهاية! سأتركه ليعرف مصير جبه السخيف هذا ولن أشغل بالي به. أنا لا أمزح حسناً؟ لدى ما هو أهُم بكثير من تلك التفاهات. لا تفعل ذلك أيها الغبي!

- صبري قبل أن نطلع، ما زال لديك القليل من أقراص الـ «دستومايزين»، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، ولكن ألم ينفك الطبيب عنها؟

- صبري، أنا الطبيب. أعطني القرص ولا تكتر معي فأنا لست بمزاج جيد كفاية.

- هاك الشريط كله. ستكون رحلة طويلة.

- من اللطيف أنك تعلم ذلك حقا، لا تزعجني إذا.

أنا لست غيوراً بالمناسبة، لا تظنني أشعر بشيء من الحقد تجاه هذا السخيف، إياك! سأنام الآن وأترك لك الوقت الكافي ل تستمتع بالنظر خلال النافذة.

- هيا استيقظ لقد اقترب النهار على انتصافه.

- حسنا يا أمي، هل بإمكانك إعداد القهوة لي حالما أقوم؟

- كلا كفاك كسلاما، لدى ما هو أكثر أهمية من قهوتك.

- هل جاءت ليلي من رحلتها الغبية تلك؟

- ستصل خلال ساعة، وسيأتي أبوك أيضًا قبل المؤتمر بساعتين. بالتأكيد لم أنس مؤتمر ملاك الطبي في السابعة، لكنها الآن لم تصل حتى للرابعة عصراً، هاااه حسنا.

- عزيزتي، سأذهب للمعمل سأشرب القهوة هناك.

- حسنا لا تتأخر في العودة.

أخذت حماماً بارداً واتصلت بسلمي لأقابلها في المعمل ربما سنشاهد المؤتمر سوياً. بعد أقل من نصف ساعة كنت في المعمل بمفردي، بالطبع فسلمي أيضاً لديها عمل تنجذبه. ربما يحتاج المكان هنا لبعض الديكورات التي أفقه فيها متلماً أفقه في اللغة الصينية، حسناً كل ذلك لا يهم، ما أحتاجه الآن هو؟ أحسنت، فنجان القهوة، لقد تأخر اليوم قليلاً. لكنني سأعتاد على ذلك، يبدو أنني سأعيش في معملي لفترة. أعددت فنجاني وجلست أستمتع به بينما كنت أتابع الأخبار حول المؤتمر، شعرت لوهلة أنني أريد أن أتصل بملك، ولم أكذب شعوري ففعلت للثو.

- هل أخْلُمْ حَقّاً؟ ندى اقرصيني من شحمة أذني لقد اتصل بي أخي لأول مرّة منذ عامين.

- إذا لم تتوقف عن مزاحك السخيف هذا سأقرصنك من منطقة أخرى.

- يا لك من وقح... ضاحكاً أردف.

- أريد فقط أن أغلقك أئني فخور بما وصلت إليه وستظل دوماً متلني الأعلى.... قلت على مضض فانا لم أغتنى التصريح بتلك المشاعر.

- ندى اقرصيني أرجوك ..... قال بخجل شابته البهجة.

- لن تتوقع أئني أكلمك من المعمل، أليس كذلك.

- حقاً؟ بهذه السرعة، وهل أعجبك؟

- بالطبع، إنه رائع، حتى سلمي أعجبت به كثيراً.

- سلمي، كيف هي بالمناسبة.

- أرسلت لك السلام معى، لا تنس أن تحضر زفافنا بعد شهرين.

- يا إلهي، هذا كم لا يعقل من البهجة في مكالمة واحدة. قال بنشوة.

- هل ملك بجوارك؟ أريد التحدث إليها.

- هي تسمعك الآن، ملك قولي شيئاً لعمك، تقول إنها تحبك واحتاقت إليك.
- حسناً لا أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك، انتظر انتظر كدت أنسى.
- ماذا تريده، بسرعة قبل أن أتأخر.
- كيف عرفت موقع الأخبار الأمريكية التي استغرقت كل هذه السنوات لأخرج؟ سأله وأنا أضحك
- ضحك قليلاً ثم أردف.... أرسل تحياتي لكل من ليلى وأبوينا، سأغلق هاتفي لأن أرقاماً كثيرة تحاول التحدث إليّ ولن أتمكن من الخلاص
- حسناً. فليوفقك الله يا عزيزي.
- أغلقت الخط وانتظرت قليلاً حتى وصلت سلمى
- كم الساعة في يديك يا آنسة؟
- ها ها ها. ظريف حقاً...
- حسناً هيا... احتضنتها لثوان ودخلنا سوياً.
- أبتعد أنا متعبة من العمل أيها العاطل.... دفعتني بقوة مصطنعة وتابعت... أديك أي أقراص للصداع، لقد نسيت أن أجلب من الصيدلية في طريقي.
- أحضرت لك هدية بمناسبة المعامل. أغمض عينيك..... قالت بعدما ابتلعت قرضاً من أقراص الصداع خاصتي.
- عزيزتي! لقد كبرنا على هذه التفاهات.
- هيا قبل أن أغيب رأيي.
- حسناً.... أغمضت
- انظرا!

- يا إلهي! لهذا أنت من تملكين قلبي دوناً عن فتيات الكوكب.

لم تحضر لي ساعة أو نظارات شمسية أو أي شيء من تلك التواوفه، لقد أحضرت لي قهوة، الكثير من حبيبات القهوة المغلفة في عبوة يبدو أنها من فئة الخمسة كيلوغرامات، قهوة محفصلة تحتاج فقط لأن يتم طحنها ومزجها بالتحويجة التي لا يعلم سرها إلا قليل.

- أشكرك حبيبتي على هذه الهدية التي لا تقل جمالاً عن ابتسامتك. احتضنتها وقبلت جبينها بينما قاطعني.

- هيا، سأعد لنا فنجانين.

- ولم ستعذين لنفسك؟ قلت محاولاً كتم الضحك، قبل أن يغوص مرفقها في كليتي اليسرى.

- حسناً، هيا بنا... قُلْث متالفاً.

وبينما كنا نذهب للمطبخ عاودني الشعور بذلك الألم مرة أخرى. الصداع الذي اعتادته رأسى في اليومين المنقضيين، فحاولت أن أقاوم وقلت

- هيا سأعلّفك سرّ تحويجة القهوة الخاصة بي، تعلمي.

فتحت أحد الأدراج وكنت متأكداً أنني سأجد ملاك قد وضع فيه مقادير التحويجة، وبالفعل، إنه أخي.

- هذه هي المستكدة، وهذا جوز الطيب، وهذا القرنفل، وأخيراً الريحان.

- ما كل هذا! كل هذا من أجل القهوة؟

- لا يا صغيرتي، بل أكثر، ابحثي عندك عن آلة الطحن، ربما ستتجدينها هنا أو هناك.

بعد دقائق وبينما كنت أحضار معايير وأوزان المقادير خاصتي لأخلطها مع حبوب القهوة قبل طحنهم معاً، كانت سلمى وجدت ما

نبحث عنه.

- هيا أفرغى كيلوغراماً واحداً في المطحنة، أحسنت، ثمَّ بعد ذلك راقبي وتعلمي.

عايَرْتُ ٢٠ غراماً من المستكة، وعشرة جوزات من جوز الطيب، وملعقة من القرنفل، وأخيراً خمسة غرامات من الريحان. وبدأتِ المطحنة تطحن لمدة ثوانٍ، ثمَّ أخيراً قمت بتبغية القهوة في علبة أحجتها.

- هيا يا صغيرتي، أعدِي لنا فنجانين. وطبعت قبلة دافئه على جبينها.  
يبدو هذا المعمل كبيزا بشكل لم يمكنني من استكشافه بالكامل، أخبرني ملاك بأنَّ هذا المبنى ليس مسكوناً لأنَّه جديدٌ إلى حدٍ ما، ربما سأشتري الطابق الذي يعلو المعمل، فعلى كل حال المبنى يغتَبر قليل الارتفاع على عكس مساحته الجيدة.

- صغيرتي على مهلك قليلاً، سأقتلك إنْ سكبت القهوة.

- سأقتلك أنا إنْ لم تخبرني بمَ كنت تفكِّر.

- لا شيء مهم، أفكِّر في شراء الطابق العلويَّ هذا.

- لماذا؟ هل وصلت لتلك المرحلة من النضوج لتعيش بمفردك؟ من دون علمي؟ لا هذا مستحيل.

- كلام لن أعيش بمفردي أيتها الحمقاء.

- لا تمزح! أنت تقصد أَنَّك ....

- بالفعل، وقد قلت لملائكة أنْ يحضر الزفاف بعد شهرين.

وكعادة أغلب الفتيات يبالغن بردود أفعالهن فقد كادت تلك السخيفية أن تسكب القهوة من بين يدي.

- على رسلك قبل أن أغير رأيي، تبا لكن!
- لقد انتظرت هذا اليوم طيلة حياتي تقرينا... قالت بسعادة جعلت عينيها تقفزان.
- حسناً. أريدك فقط أن تنتظري حالما يعود ملاك، فأنت تعلمين أن الشتاء ليس مناسباً للزواج.
- حقاً؟ لماذا؟
- لا أعلم، قلت هذا فحسب... ضحكت وأنا أشرب القهوة قبل أن تلجمني تلك العنيفة في ركبتي.
- بالمناسبة، كنت أريد أن أخبرك كذلك أثني ذاهبة لأستراليا لقضاء بعض الوقت مع عائلتي، أنت تعلم لن أتزوج قبل موافقتهم.
- بالتأكيد هذا طبيعي، سأكون خلال تلك الفترة أحضر المنزل وأفتح المعمل.
- أنهيت الفنجان وأرحت ظهري قبل أن تسألني
- هل أعجبتك القهوة؟
- نعم، لكن يوجد مجال للتحسن في هذا الشأن قلت متذمراً قبل أن أتابع. سأجعل ليلي تعلمك
- دعنا من هذا الهراء قبل أن أكلمك في أنفك الضخم هذا، لقد اقترب موعد المؤتمر ترى كيف يشغرك الآن؟ وماذا تظنه يفعل؟
- في مثل هذه الظروف أتذكر كيف كان ملاك يجلس أمام البيانو لساعات متواصلة دون طعام أو شراب، فقط يعزف لترتاح أعصابه.
- لقد أخبرتني بشأن ذلك من قبل، هل هو عازف جيد؟
- عازف جيد؟ لقد صنع البيانو من أجل ملاك، وأظنه كان ليصبح أشهر عازف في الكوكب لو لم يختار مجال الطب. كان يزعجني كثيراً عندما

كنا صغارا، فيجبرني على الاستماع لمقطوعته المفضلة. أتعلمين، لقد حفظتها من تكرارها.

- وما اسم هذه المقطوعة؟

- لا أعلم تماما، لكنني واثق من أنه يؤديها الآن في غرفته في الفندق أو في أحد المطاعم. ماذا؟ تبدين ممتعضة.

- كيف تشرب هذه القهوة؟ أشعر بمرارة أيام حياتي بكمالها في هذا الفنجان.

- مدللة.... قلت متھکما قبل أن أتابع... تعالى أعلمك.

اقتربت منها ببطء بينما مازالت شفاتها مبللتان بالقهوة - لأقبلها قبلة حفيفة فوق شفتيها الممتلئتين.

- لا أجد اختلافا... قالت بينما كنت أقرصها من أذنها الصغيرة...  
ضحكنا قليلاً قبل أن تنظر في ساعتها قائلة:

- حسناً سأذهب الآن للبيت وأحاول العودة قبل المؤتمر.

- كلا لن تجدي الوقت الكافي لذلك، ما رأيك أن تذهبين عند والدي لتقضى معهم جزءاً من الليلة وسأعود إليكم.

- حسناً يا عزيزي، أراك لاحقاً... قالت بينما كانت تطبع قبلة على لحيتي.

"على مدار القرون وأمراض فتاكة كانت تودي بحياة الملايين من البشر، وبينما نتقدم خطوة تجاه القضاء على تلك الأمراض تسبقنا هي بأميال، فما كان لنا إلا أن نحدث طفرة، ربما ستكون هي الحدث الأكبر ليس فقط في هذا القرن بل أيضاً في تاريخ البشرية.

يموت سنوياً قرابة التمانية ملايين إنسان بسبب مرض السرطان، ثلثتهم من الفقراء الذين يموتون دون معرفتهم بالمرض.

وخلال أبحاث استمرت ما يقرب لعشر سنوات توصلنا لعلاج دائم للسرطان، ولبعض الأمراض المستعصية كنقص المناعة أو ما يعرف بالإيدز. أتفق على هذا المشروع عشرات الملايين بل وربما المئات، حتى توصلنا لما أنتم جالسون الآن لسمعيه. الباراتوكس.

لم اتخذ قراري بعد بشأن موعد طرحه في الأسواق، لكن بالتأكيد سيكون ذلك خلال الأشهر القليلة القادمة، لذلك فإن الباراتوكس سيخضع لاختبار مرات عديدة قبل أن يتم اعتماده ثم طرحه في الأسواق كما قلت. أي أسئلة؟

- أرأيت كم كان رائعًا؟

- بلى، إنه أكثر من رائع يا أبي، هل سلمي عندك؟

- بالطبع، لا تستطيع تمييز ضحكاتها العالية. قالت بينما تضحك.

- حبيبي كلكم تضحكون. أردفت مبتسمًا.

- أنت لا تخيل كم سعادتنا برؤيه أخيك في مثل هذا الموقف، أتمنى أن أراك مثله يوماً ما.

- بإذن الله، بإذن الله يا أبي.

- هل ستبين عندك أم ستأتي الليلة؟

- كلام، أفضل المبيت هنا، هل أخبرتك سلمي بشأن زواجنا المقرر؟

- أجل يا عزيزي، أنا سعيدة لأجلك. ووالدك كذلك.

- تصبحين على خير.

حسناً يبدو أن المؤتمر انتهى تقريباً، فقط بعض الأسئلة التي لا مغنى منها، كم هو جهاز مستفز حقاً، عشرات القنوات ولا تجد فيها شيئاً تشاهده، ربما بعض المباريات التي تزيد الضغط وتتعب الأعصاب وإلى جانبها أخبار عن حوادث وتفجيرات وعلاقات متوترة بين روسيا

والولايات المتحدة هذا العالم سيء للغاية من دونك يا قهوة، كيف كنت ساحتل البشر حقا؟ لا أعلم.

يبدو أنني لن أنعم ببعض النوم في ليالي هذه، وقد نسيت كذلك عليه أقراص الصداع تلك، كم أنا غبي حقا هل أتصل بملك الآن؟ بالتأكيد لا فهو ينفع ببعض الوقت اللطيف مع أسرته لم لا أحاول؟ حسنا اتصلت به وكما توقعت، كان هاتفه مغلقاً.

هل أتابع نشرات الأخبار وردود الفعل حول المؤتمر؟ ربما يجب علي أن أنام فالوقت قد تأخر قليلاً، ولكن لماذا أنام الآن؟ فانا لم أفعل شيئا طوال اليوم! مهلا أنا لم أصف لك معملي، اعتذر عن هذا حقا، سأخذك ونفسي في جولة عسى الصداع يزول من رأسي.

نحن هنا في صالة الاستقبال، شاشة عرض تلك التي تواجه الأريكة التي أستلقى عليها الآن، وهذا هو الحمام بجانب الممر الضيق هناك. في نهاية هذا الممر يوجد ثلاث غرف، واحدة هي المطبخ، والأخرى هي غرفة النظافة، والأخيرة هذه ليست غرفة حقا، بل هو ذلك الباب المؤدي للطابق السفلي، دعنا منه الآن ولنذهب في الاتجاه المعاكس من صالة الاستقبال، تماما عند غرف التحاليل ومعملي الداخلي.

يوجد كما ترى هناك أربعة أبواب؛ زوج منها متقابلان، ويبعدهما بامتار قليلة باب ثالث قبل الباب الأخير والذي هو معملي. البابان المتقابلان كل منهما لغرفة متوسطة الحجم، مجهزتان لأخذ عينات الدم من المرضى بشكل عام، بينما الغرفة الثالثة فهي غرفة حفظ العينات، تعرف بذلك بمجرد دخولها من برودتتها الشديدة ورائحتها التي تشبه رائحة مؤخرات الأطفال حديثي الولادة. كان هذا تشبيها سيئا، عفوا.

وكما قلت لك فإن الباب الرابع لعملي، والذي يغترب كثيرا إلى حد ما، انظر! ربما لم أتخيل أنني سأمتلك معملا مجهزا بكل هذه المعدات، أنا حقا لا أرى سببا يمنعني من افتتاحه والبدء بالعمل لقد انتهينا هنا ماذا؟ أنت لا تريدينني أن أنزل للطابق السفلي أليس كذلك؟ بالطبع لا مم

سأخاف! هذا يحدث فقط في أفلام الرعب وليس هنا! لا تكن مملاً!  
حسناً سننزل سوياً.

كما ترى، باب عادي تماماً، وسلام مثله تماماً، بينما صوت خطواتي يجعل منه مخيضاً قليلاً ولكن لا بأس. الإضاءة تعمل بشكل جيد، وهذه الغرفة التي سأنام فيها، وهذه هي الغرفة التي لا مقبض لها. سأحاول فتحه فيما بعد، لكنني سأنام الآن.

\*\*\*

قمت من نومي لا أعرف كم مضى من الوقت، ألم يعتصر دماغي، وببرودة غريبة تجتاح جسدي، يا الله! ما هذا الألم! درجة حرارة الغرفة لا تتعدى الخمسة وعشرون درجة مئوية، رأسي يتعرّق وكأن الشمس تعلو بستينيمترات، وبداخلي ببرودة تجعل من قلبي ينقبض دون انبساط، رئتي ترتعشان وأصابعي تبister كأسنان المشط، لا أرى أمامي سوى شريط حياتي التافهة الفارغة من كل شيء، ولماذا أتذكر معزوفتك الغبية الآن يا ملاك! جاهذا حاولت الإمساك بها تفني، حاولت التنفس بصورة طبيعية، أشعر كأن جبلًا جليديا قد اخترق قلبي، وحمقا بركانية تنزع جلدي عن عظامي. يا للسخرية! هل سأموت الآن؟ يصل ملاك لأعلى مراتب المجد بينما أحضر هنا. ساد الظلام، لا أعرف هل أغمضت عيناي أم أنني فقدت الرؤية، فقط ساد الظلام.

تذكرة حملت رواية عندما يعزف الشيطان حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهر لك.

\*\*\*

(٤)

## موسكو

- صبري! ألا يوجد هنا من يتحدث العربية؟ أشعر بالشحذ حُقا من عدم فهمي لما يحدث.

- مهلا يا صديقي سألهي حجز الغرف ربما تنتظرنى هنا.  
- حسنا.

- لن أتأخر لا تقلق.  
- لا يهم.

طلبت من تلك الفتاة الجميلة فنجانًا من القهوة، ولحسن حظي كانت تفهم الإنجليزية. تفُقدت المكان حولي سريعاً، ليس ممِيزاً، قاعة انتظار كبيرة كتلك التي توجد في كل فندق، كبيرة قليلاً، ربما أكبر من غرفتي. جاءت تلك الفتاة رائعة الجمال حاملة القهوة بينما كنت أقرأ رسالَة من جوليَا حول المعْمل. إن روسيا جميلة حُقا، فرغم الصقيع الذي تكاد أوصالي تتـساقط من شدته، إلا أنني حُقا أحببت ذلك، ربما لأنني لم أغادر منزلي لأشهر عديدة. يبدو أن صبري سيتأخر... ببطء شديد بدأت أرتشف فنجاني رشفة تلو الأخرى، مستمتعًا بمرارته تلك المرأة التي صارت معشوقتي الأولى والوحيدة، مرارة اعتدث عليها طيلة السنوات الماضية فصارت جزءاً أساسياً من حياتي.

- هيا بنا يا فتى، ألم تنه قهوتك بعد؟ حسنا.

وأشار صبري للنادلة طالباً فنجانًا كفنجاني قبل أن يستقر في مقعده أمامي.

- اسمه "ديمترى أبراموف" ... ثم خفت بصوته متابعاً ..... ضابط في المخابرات الروسية ...

- ماذا؟ يا له من اسم عادي! كان أحدهم قام بالبحث عن "أسماء

- الان أصبحت تمزح! يبدو أنَّ القهوة مذاجها جيئُ حقاً.

أخذت رشفة طالبا منه أن يكمل حديثه ...

- كان ”ديمترى“ هذا على اتصال دائم بملوك، كأحد أفراد الطاقم العلمي الأوروبي الذي عمل معه لسنوات.... أخذ فنجانه من النادلة بينما تابع .... لديه ابن شاب اسمه اليكساندر يعيش الآن مع أمّه.

- ما هذه المعلومات يا صبّري؟ وما شاني بابنه و زوجته أو أمّه! أريد أن أعرف لماذا و متى فعل هذا الرجل فعلته ولمصلحة من! هل هي .....

قاطعني سريعا - سنعرف ذلك حالما نذهب لرؤية الجثة، هيا بنا لقد وصلت السيارة. لم يمر الكثير من الوقت حتى وصلنا لذلك المبني الضخم، يتضح من حجمه أنه مبنى حكومي، شاهق الإرتفاع، ربما خمسة وعشرون طابقا، كان في استقبالنا وفداً رفيع المستوى - يمكنك أن تفهم ذلك من ثيابهم السوداء و النظارات الشمسية - لهذا قاطعني صبّري في الفندق إذا رافقونا إلى المبني و التزم جميعهم الصمت عدا ذلك الشخص - الذي أظنه الأعلى رتبة بينهم - ظل يخاطب صبّري و كأنهما زميلاً عمل سابق، أخذنا المصعد لطابق عال - لم أستطع رؤية رقم المصعد فهذا الضخم يحجب الرؤية تماماً .

- لم أكن أعلم أنك تتحدث الروسية ...

- أنت لا تعلم شيئاً يا رجل، لا ثير الانتباه فهو لاءُ أشخاص لا يتقبلون المزاح كثيراً.

- انظر إلى حالك الآن أصبحت مهمّاً.

قاطعني صوت وصول المصعد، بينما رافقنا ذلك الدوّلاب البشري إلى ممرٌ ضيق حيث خلعنا ملابسنا الشتوية تلك و تعقمنا قبل أن ندخل إلى المسرحة، ويَا للصدمة! كتلة صغيرة من اللحم البشري، جذع و رأس

مهشّم يكاد يذوب لحم وجهه، ساقٌ وذراعٌ يمسيّن، ربما لو لم يقتل ذلك المسكين ملاك لأشفقت عليه.

- مطابقة لجنة ملاك، أليس كذلك؟

- تطابق مثالٍ يا صبري، وكأنهما قتلا على يد الجزار نفسه. أو أثق أن هذا من قتل ملاك؟

- ثقة تامة مطلقة.

- حسناً، اتركني لبعض الوقت مع هذا اللحم المهترئ، يمكنك اللهو مع أصدقائك ذوي اليراث السوداء تلك.

متأقفاً خرج صبري من المشرحة ليتركني مع هذا المسكين، بالطبع أشفق عليه، لا يبدو لك أنه العبد المأمور؟ لا يمكن لطريقة القتل أن تتطابق هكذا إلا في حالتين، إما أن القاتل هو ذاته من قتل ملاك، أو أن ملاكاً قد عاد من الموت لينتقم منه بنفس الطريقة. أفضل تصديق الخيار الأول.

بينما أعبث بجنة هذا المسكين تعاطفت حقاً معه، لم يكن هذا الشقي إلا مجرد دمية استخدموها للإيقاع بك يا ملاك، لن أرجو أن تسامحه، لكنني أظنه فعل ذلك مضطراً ما رأيك أنت؟ هل لو كنت مكانه هذا الرجل كنت لتفعل فعلته؟ هل كنت لتقتل عالقاً أو بطلاً ذا شأن عظيم فقط لأن حياتك مهددة؟ هل تظن أن حياتك أهم من حياته؟ ربما لا، فأنت بالتأكيد ذلك المُنافق مُدعى البطولة تريد فقط أن تناى بنفسك عن الإجابة الصريحة هنا لا بأس عليك، أظنه أن أي أحد مكانه كان ليفعل ذلك، قال صبري منذ قليل أنه لديه ابن شاب و زوجة، بالتأكيد هذدده بهما لا تكون ساذجاً! هذا اختيار عصيّ يا رجل لا أتمنى لك مواجهته.

انظر هنا لقد حرقوا وجهه بسائل كيميائي، ربما حمض الهيدروفلوريك، ترى ذلك من عظام الجانب الأيسر من وجهه، ها هي أسنانه أو ربما ما

تبقي منها، وانظر لكل آثار الخُنْفَن هذه، بالتأكيد يا رجل لقد حقنوه بالباراتوكس، تماماً كما فعلوا بأخي، قطعوا ساقه اليسرى و كذلك ذراعه، حقنوه كما حقنوك بذلك الطفيلي الذي طورته أنت يا ملاك، بالتأكيد لن أتعجب من شرور البشر، لم أعش كثيراً لكن أظنّ أنني رأيت ما يكفي في حياتي. كم كانت هادئة قبل أن يحدث كل هذا، فبدلاً من أن أغبت بستائر البيت مضايقاً سلمى، هأنذا أغبت بجثة من قتل أخي كما فعلت قبل ذلك من سنوات قليلة بجثة أخي نفسه.

لا عليك، أنا بخير لقد اعتدت ذلك الشعور بالفقدان، أظنك شعرت به أيضاً، هو شعور لا يوصف، فقط تشعر أن شيئاً ما بداخلك قد ذهب، تشترق أحياناً لأناسين لم تعتد الاشتياق إليهم، تشعر بذلك الندم أنت لم تمض الوقت الكافي معهم منذ البداية و تبدأ في سب نفسك ولعنها، ليتنى شاطرتهم بعض الأحاديث، ليتنى ت莎جرت معهم أكثر، ضحكت ولعبت أو ربما يا ليتنى لم ألتقو بهم من الأساس، على الأقل لم أكن لأنشر بهذا الشعور.

لماذا اخترت هذا الطريق من البداية يا ملاك؟ كنت لتكون موسيقاراً أو عازفاً أسطوريًا، حتى لو كنت تحب مساعدة البشر كان الأولى أن تصبح جراح أطفال أو ربما عيون، لقد أجريت لي بالفعل جراحة في عيني تلك بينما كنت في الثالثة والعشرين، كنت أسطورة ربما لن تتكرر، لكنني أردتك أخاً حيناً أكثر من أسطورة ميّتة.

صوت طرق الباب جعلني سريعاً أكف عن النواح، إنه صبرى بالتأكيد.

- ادخل

- ألم تنتهِ بعد؟ يبدون غير راضين عن وجودنا هنا طويلاً.

- بل، حصلت على ما أريد، هل حصلت أنت على بعض المعلومات؟

- على الكثير منها، هيأنا بنا فالسيارة تنتظرنا في الأسفل.

ركبت وصبرى السيارة التي كانت قد أعدت مسبقاً للعودة إلى المطار،

كان صبّيًّا مُحَقّاً بالفعل، لم يكن مرحباً بنا هنا، بِشَلْهُفٍ شدِيدٍ كسرُت  
الصمت الذي لم يدم إلَّا قليلاً:

- أخبرني إذا، علام حصلت؟

- على هذا، يحتوي هذا الملف على كل المعلومات التي كان يزودهم  
بها ديمترى.

- دعني ألقى نظرةً.

أخذت منه ذلك الملف الورقي وأجريت عليه نظرةً سريعةً لأجد ما  
يلفت الانتباه. بالطبع، كل ما يخص ذلك الفريق البحثي الذي عمل مع  
ملوك طوال سنوات.

- ماذا عنك، أوجدت شيئاً بجحثته؟

- بالطبع.... أقيت إليه برقاقة صغيرة مغلفة بغلاف بلاستيكى شفاف  
لينتفض صبّي بجانبي..

- مهلاً! أنت لا تعلم ما هذه الرقاقة أليس كذلك!

- لو كنت أعلم ما احتجت إليك يا عبقرى.

- هذه شريحة تعقب تستخدماها بعض أجهزة المخابرات لمراقبة  
رجالها... كانت مطموسة تحت جلد الرقبة، أليس كذلك؟

- كلام، كان هناك جرحاً في عنقه، لكنّي وجدت هذه في أسفل  
صدره... هل تظئن.....

جحظت عيناه حتى كادتا تخرجان من مكانيهما

- بالتأكيد، غرسها ذلك الوعد إذا لنفسه ليسجل تحركاته كي يحصل  
عليها أحدهم.... يا فتى لقد حصلنا على ما نريد حقاً.

في المطار وبينما كنت بقاعة الانتظار أحاذل فحص الشريحة قبل إدخالها في حاسوبي المحمول، أتي صبّري حاملاً كوبين من القهوة وتبعدوا عليه السعادة الغامرة. لم أكن أعلم أنّه بتلك الأهمية - كي أكون صريحاً - فقد كان رجال المخابرات الروسية هؤلاء يعاملونه بود واحترام بقدر ما عاملوه بحزن وجدية وصرامة. من الجيد حقاً أنّه ما زال على قيد الحياة. جلس صبّري وناولني القهوة واستهل حديثه ...

- هل انتهيت؟ لا نريد إضاعة الوقت.

- أمهلني دقائق، أنا لا أفعل شيئاً فالحاسوب هو من يقوم بالعمل كلّه.  
رنّ هاتفه ليستأذن ذاهباً للرّدّ. يا رجل لقد كبرت على هذه الأشياء بالفعل، لا أستطيع منع نفسي من الضحك كلما تخيلت أنّ فتاة ستحب صبّري، كلاً لا أقصد التقليل منه فهو ما تبقى لي من عائلتي، لكن يا رجل، يكاد صبّري أن يبلغ الستين من عمره بالفعل، كيف لرجل في مثل عمره هذا أن يفعل ما اعتدنا فعله في سنوات مراهقتنا تلك؟ لا عليك، فلربما ما زلت تفعل أنت الأمر ذاته. تفقدت المعمل سريعاً من هاتفني وجلست منتظرًا «روميو» كي ينهي مكالمة العشق تلك.

- عذرًا يا صديقي، كانت مكالمة عمل.

- بالطبع كلامهم يقولون ذلك، لا تحف يا رجل لن أخبر أحداً أنك تعاني من مراهقة متأخرة.

بحسّكابٍ لن تمل من سمعها قال صبّري

- انظر لحالك الآن تمزح، كلا، إنها تلك الصحفية الجديدة التي حدثتك عنها من قبل، تريدين مقابلتك... هذه المرأة لا تكل من العمل أبداً.

- حقاً؟ كانت مكالمة عمل إذا، حمدًا لله أنك ما زلت محظوظاً بعقلك.....  
أخيراً! انظر لها هنا، أنا لا أفهم كثيراً في الخرائط...

كانت الشريحة تلك تظهر نقاطاً حمراء بأماكن متفرقة يميّزاً ويُسازاً،

وكانه خط سير بحيث تزداد درجة احمرار النقاط بأماكن دون الأخرى.... دنى صبّري بكرسيه حتى يمتنع النظر في شاشة الحاسوب مصدراً بعض الأصوات بشفتيه...

- ما بالك يا رجل هل ستعلق الشاشة! قل لي ماذا تفهم من هذه النقاط.

- حسناً، هلا تأكّدت من تقرير اختفاء شقيقك، بالتأكيد كان ديميتري متواجاً بالمؤتمر، أليس كذلك؟

- بالفعل....

- إذا فلنصل إذاً أنّ هذه النقطة شديدة الإحمرار في بداية الخط هي هنا، في موسكو، وبما أكّدت أنه كان في باريس ذلك اليوم - فلا بد أن تكون هذه النقطة الصغيرة في باريس... وإذا سرنا مع الخط هذا لأسفل سنكون في..... إيطاليا.....

لم انتظر فقد كنت بالفعل أبحث في بيانات الفريق الطبي..... ماركو روّسو، الاسم الوحيدة من إيطاليا. أرسلت على الفور تلك البيانات إلى جوليَا لتطابقها مع الخريطة، بحيث تبدأ النقطة الأولى من موسكو وترسل لي الموقع بالتحديد، وبغضون ثوانٍ أتت النتائج.

- صبّري، أنت عبقري.

- كلا كنت فقط أحب مادة الجغرافيا في صغرى.... أرجي ماذا لدينا. أرسلت لي جوليَا صورة الخريطة بالتفصيل.. يظهر خط النقاط بداية من موسكو، مروراً بباريس ثم قاطعاً فرنسا من باريس حتى جنوبها مع الحدود الإيطالية.

- إذا فوجهتنا القادمة إلى إيطاليا يا فتى.

- بالطبع، ندين لماركو روّسو بزيارة قصيرة، لكن علينا العودة أولاً كي نرثب أوراقنا.

(٥)

## الباراتوكس

ديميترى..

- هل أنت مستعد؟

- بالطبع سيدى... سأفعل ما بوسعى.

هكذا انتهت محادثتى الهاتفية مع رئيس المكتب آنذاك، كانت مهمتى واضحة وبسيطة وهي الحصول على القدر الأكبر من المعلومات حول هذا الاكتشاف، فلقد تم اكتشافه على أراضٍ روسية بكل حال. من الجيد حقاً أنني درست العديد من اللغات وإلا ما كنت حصلت على هذه المهمة. لم يفترض أن تكون هذه المهمة بتلك الصعوبة السابقة لها، أذكر كيف اضطررت لانتزاع أظافر ذلك الجاسوس الداغستانى وحرقها بحمض حارق، آه يا رجل ما زال صراخه يرن في أذنه عندما اختطفنا زوجته. لا أريد الحديث عن هذا.

ظننت حينذاك أنها ستكون مهمة قصيرة، فقط أرافق هذا الوفد البحثي رفيع المستوى وأحصل على ما أستطيع الحصول عليه وأذهب، بهذه البساطة، كنت غبياً. لو كنت فقط أعلم أنني سأجلس جلستي هذه متظلاً نهايتي، لما اخترت هذه المهمة.

كان يومي الأول في العمل هادئاً، فالسيد ملاك شخص لطيف بالفعل، أذكر أنه جاء متأخراً عن موعده بدقائق قليلة كي يلتقي بي وأعرفه بنفسي، ظل يعتذر مني كثيراً ذلك اليوم حتى أنه أخذني للغداء في مطعم لم أتخيل يوماً أنني سأدخله.

- إذا ديميتري، هل لديك أطفال؟

- بالطبع سيدى، لدى الكساندر بعمر الثامنة.

- الفارق بينكما ليس كبيراً إذا.

- بلى، أصرت جدتي أن أتزوج كي ترى حفيدها قبل أن تموت، لا يكفي عن الشكوى كوني لا أقضى معه الكثير من الوقت، فكما تعلم المترجمون كثيرو السفر والانتقال.

- بربك يا رجل، يجب أن تقضي مع ذلك الفتى وقتاً أيضاً، يحتاج الصبية إلى آباءهم في هذه السن دوناً عن غيرها لا تزيد أن تراه ملازماً لأصدقاء سيئين على سبيل المثال

- أتفهم مقصداك حقاً يا سيدي ولكن ...

- كفاك مناداتي بسيدي، أنا لست سيداً، أنا لست رب عملك كي تتملقني هكذا، فقط تصرف بطبيعتك يا رجل كف عن المغالاة في الحديث.

كان رجلاً متواضعاً بشكل كبير، لم يحتاج كثيراً من الوقت كي نصبح أصدقاء، فبمجرد أن تكلمت أمامه بالعربية صرث بالفعل صديقه المقرب. استمرت تلك الصداقة لسنوات عديدة، ربما ثمان أو تسع سنوات، كانت صداقه كالأخوة، بل ربما أكثر. أحببت في ذلك الرجل كونه صادقاً، محباً للجميع، ثقته الكبيرة والتعامس الخير فيبني البشر، لكنك يا صديقي لم تز شرور نفوسهم أبداً، على الأقل ليس كما رأيت أنا.

- ملاك، هل لي بسؤالٍ ولك مطلق الحرية إن لم ترد الإجابة عليه؟  
أومأ موافقاً برأسه بينما يلتهم شطيرة الدجاج خاصته لأنابع... لماذا تفعل كل هذا، حقاً لم كل هذا العناء؟ السفر والأبحاث وكل تلك الأموال من جيبك الخاص، لماذا؟

- لا أعرف حقاً، ربما أظنه أنه لابد لنا من أن نفعل ما بوسعنا كي نجعل من هذا العالم مكاناً أفضل، لا أعلم.

- لكنني أظنك لست بتلك السذاجة التي يجعلك تصدق أن العالم سيصبح ذات يوم مكاناً أفضل.

- بالطبع لن يصبح، انظر لنفسك، أنهيت شطيرتك للتو، لماذا إذا ستقوم لغسل يدك؟ ستتسخ مرة أخرى عندما تتناول العشاء، ولماذا قصصت أظافرك مؤخرًا؟ هاه؟ ستنمو مرة أخرى بعد عدة أيام وستقضمها مرة أخرى، وكذلك لماذا تستحم وتتعطر صباح كل يوم؟ أليس لأن ذلك هو الصواب؟ لكي يصبح منظرك ورائحتك أفضل؟ هل أنت ساذج لأنك تفعل ذلك رغمًا من علمك بأنك ستتسخ مرة أخرى؟ ليس المغزى من فعلنا للأمر الصواب هو أن نجعل العالم مكانًا أفضل، بل لأننا نريد ذلك، هل تظنني لا أعلم أن اكتشافنا سيُسرّق ويُستخدم ربما كسلاح حيوي لتهديد الملايين؟ أو كأداة للفتاوض بين الحكومات للدول الكبرى أو ربما ستتم المتجارة بحياة البشر من أجل المليارات التي ستأتي من هذا الدواء، أبطئك أني لا أعلم كل ذلك؟ بالطبع أعلم لكن ذلك لن يوقفني، سأفعل ما بوسعني كي يظهر هذا الدواء للعالم، وليسخدمة العالم كما يشاء، وبالتالي أكون على قيد الحياة حينها.

كم كنت حكيما يا رجل، ويا للمفارقة، فأنا من قتلتك بيسراي، على الأقل لست حزينا على ما حل بها مؤخرًا.

أذكر كذلك يوم افتتح ملاك ذلك المركز الطبي لعلاج الفقراء، لم يكونوا من أهله ولا من لونه ولا يجمعهم به شيء على الإطلاق، لكنه أراد أن يترك بصمته في كل مكان يذهب إليه، وأي بصمة تلك التي تركتها في يا رجل.

- لماذا اخترت هذا المكان؟... هكذا سألته عندما حضرنا معاً افتتاح ذلك المركز الهائل.

- لأن المكان ذاته الذي جعلني آتي إلى هنا، المزرعة نفسها التي مات صاحبها بسبب الباراتوكس، انظر لهذه الشجرة هنا، ستظل عالمة مميزة لهذا المكان.

- لا أرجوك لا تبدأ حديثك عن الأشياء التي لا أفقه فيها شيئا... كنا نتجول آنذاك بين طرقات ذلك الصرح الطبيعي الهائل، أشرت حينها لأحد

الفقراء المرضى المسئلُين على الأسرة... ملاك انظر إلى هذا الرجل هناك، يبدو لي حقاً أنه يشبهك.

- يا رباه، حسناً ها قد وجدنا واحداً، بقي لنا تسعه وثلاثون.... ثمَّ تابع ضاحكاً.... ماذا بشأنك، هل رأيت يوماً شخصاً يشبهك.

- صديقي لا يوجد شخص على وجه الأرض بتلك الوسامنة والأناقة.

- انظر إلى صديقي المتواضع...

تعالت ضحكاتنا قبل أن يسألني سؤالاً غريباً ...

- ما هو دافعك للحياة يا صديقي؟

تبنا لك يا رجل، ضربني بذلك السؤال في مقتل...

- ربما أليكسى، ليس لدى إلا هو كي أحيا من أجله على الأرجح.

- فهل إن مات أليكسى ستموت من بعده؟

- يا رجل! ما هذا الكلام.

- أجبنى فقط، أريد حقاً أن أعرف إجابتك عن هذا السؤال.

- إذا فلا بدّ أتنى سأموت قبل أن يؤذى أحد ابني.

- من قال أن أحداً سيؤذيه، يا رجل أنا أتحدث عن شيءٍ طبيعيٍ، قضاء وقدر... لا عليك... كان سؤالاً وحسب.

- لا أعرف، لماذا تسأل؟

نظر حينها للجمع في ساحة الانتظار وأجابني

- انظر لكل أولئك الناس، لكل منهم إخوة أو أبناء أو أحباء وأعداء كذلك هل برأيك سيفنى كل شخص بمجرد فناء أحبته؟ هل من العدل أن تربط حياتك بحياة شخص آخر؟ أن يجعل من شيء لا قرار لك فيه ولا قدرة لك عليه هو سبب تعلقك بالحياة؟ إن مات الكساندر غداً في

حادث طريق او بسبب حرب ضروس بين روسيا والولايات المتحدة،  
هل سينتهي ارتباطك بالحياة؟

- إذا لن تحزن إن حدث لابنتك أو زوجتك الأمر ذاته؟

- بالطبع سأفعل، سيعتصر الألم قلبي وسينفطر ولربما استجف عيناي من الدموع، لكنني سأحيانا لأنّ لي هدفاً أحياناً من أجله.

- وما هو هذا الهدف؟

- هو ذاته الذي سأموت من أجله. تذكر جيداً يا صديقي إن لم يكن هنالك شيء تموت من أجله، فما من شيء تحيا لأجله. وبالضرورة لا بد أن يكون هذا الشيء باختيارك، بقرارِ منك أنت، لا بقضاء وقدرٍ أو بخيار يختاره لك الآخرون.

ها أنت ذا ثقى بالعبر والمعطيات كأنك تلقنني درسا.... لا تننس أني أكبّر منك بسنة كاملة.. تشاركنا الضحكات قليلا قبل أن أشكّره على كل شيء.

- سأشتاق لك يا ديمترى، أنت رجل صالح حقاً.

- لا يصح الحديث عن الصلاح بوجودك، سأشتاق لك أيضاً يا رجل.

- كلا لن تفعل، لن أغيب طويلاً على كل حال، يومان أو ثلاثة على الأكثر قبل أن أعودها هنا.

لم أكن بمثيل ذكائك يا ملاك، ولم أكن بالطبع بمثيل قوتك. علمت ذلك عندما جاءتني تلك المكالمة الهاتفية، رجل يتحدث الإيطالية يخبرني بأن أقبلكه غداً في الحديقة العامة، تظاهرت حينها أنني لا أفهم ما يقول لي فاجاني بروزه:

- لا تصطنع البلاهة يا هذا، ربما ستفهم هذه اللغة جيداً

«أبي، ما الذي يحدث بحق السماء، من هؤلاء القوم»

كان ذلك صوت الكساندر، لم يكن فقط ابني الوحيد، بل كان كل شيء.

- من أنت وماذا تريدون؟

أجابني بالإيطالية مجدداً

- أتضطّن البلاهة مزة أخرى؟ أنت تعلم ما نريد. قابلني غداً في الحديقة العامة بوسط المدينة.

- إنّ حدت أيّ شيء له فسأ....

أغلق الخط في وجهي، لابدّ أنّ ذلك الشخص علم تماماً طبيعة عملي فقد اتصل بي من تطبيق مشفر غير خاضع للمراقبة الحكومية، هل كان من المفترض علىّ أن أخبر رؤسائي في العمل؟ ربما لا، كان ذلك سيدوي بحياة الصبي، ماذا تظنّي فعلت يومها؟ بالطبع ذهبت لمقابلته، انتظرت ل ساعتين قبل أن تظهر امرأة شابة مقدمة إلى شريحة رقيقة وذهبت بدون أن تنطق بكلمة واحدة.

أدخلت الشريحة بحاسوبي محمول، كانت فارغة تماماً من كل شيء عدا قائمة بالمهام التي يتوجب علىّ فعلها، وفي نهايتها رابطاً لموقع ما. ضغطت الرابط ليذهب بي إلى موقع غريب لا يُظهر إلا غرفة شديدة الظلمة، كان ذلك ما تصوّره كاميلا المراقبة بها، ليظهر فجأة من وسط الظلام رجل مقنع يجذب جسداً بشرياً، إنه الكساندر، مقيد من ساقيه وذراعيه ويبدو كما لو كان فاقداً للوعي. حسناً فهمت.

كانت قائمة المهام واضحة كما تتحضّش الشمس في ساعة الظهيرة، سيكون ملاك مع فريقه البحثي بباريس خلال يومين حيث سأرافهم، ستحذث فوضى عارمة، سأخذ صديقي إليهم وأخذ أليكساندر ونهرب بعيداً، ربما في لندن أو نيويورك، لا يهم أين، بقدر ما يهم أن تكون بعيدين عن روسيا.

أتمتع الآن بهذه الحرية التي لم أعشها من قبل، حرية الحديث عما أفكّر فيه، فأنا رجل هالك لامحالة. حدثت تلك الفوضى، حذّرني رؤسائي

بالمكتب مما سيحدث وأمروني أمراً لا نقاش فيه ولا جدال، حالما تحدث الفوضى تأتي بملأ فوزاً إلى هنا، لكنني بالطبع لم أفعل، أخذت صديقي وزوجته وطفلته الصغيرة تلك في سيارة من سيارات الإسعاف، لم يكن صعباً عليَّ اختطافهم، فهذا عملٌ يا رجل، وأخذت طريقي الطويل إلى جبل «مون بلان» بحدود إيطاليا. فهمت حينها أنه من عمل المافيا، بالطبع يريدون الباراتوكس من أجل بيعه مقابل السعر الأعلى للزبون الأفضل. آسف لك يا صديقي.

استمرت رحلتي حوالي سبع ساعات حتى اقتربت من قرية صغيرة تقع قرب الجبل حيث كانت تلك الشاحنة السوداء الضخمة بانتظاري، ترجلت من سيارة الإسعاف متجهاً للشاحنة، وركبت. لم أر شيئاً في طريقي بسبب تلك القماشة قبيحة الرائحة التي أغمضوا بها عيني، ولم يمض من الوقت الكثير حتى استيقظت فرعاً لا أدرى أين أنا، هل عبروا بي الحدود إلى إيطاليا؟ كم مضى من الوقت، كم الساعة الآن؟ لم أكن أرى شيئاً من الظلمة وكأنني لم أفتح عيني بعد.

قمت من مرقدي على الأرض متحسساً الجدار إلى يميني عساي أجذ مفتاح الكهرباء. كانت الأرض مبتلةً وصوت خرير الماء يحاول جاهداً أن يخبرني مكانه، صرخت بصوت عالٍ «أين أنتم، أين الصبي، لقد نفذت الاتفاق». بالتأكيد لم أكن أتوقع ردًا، لكنني توقعت سماع صدى صوتي كي أقدر حجم الغرفة، لحسن حظي حينها أن أصابعي وجذب مفتاح الكهرباء. كم تمنيت أن يكون فحًا وأن تصيبني صاعقةً كهربائيةً تودي بحياتي للأبد، لكننا نعلم أنها لم تكن كذلك، فقد أضيئت الغرفة، ويا ليتنى صعقت بالكهرباء بدلاً من تلك الصاعقة التي حلّت عليَّ.

كان ملأ متدينًا من السقف من ساقيه إلى جانب زوجته وطفلته الصغيرة، مكممو الأفواه بمؤخرة الغرفة أمامي إلى جوار حوض الماء. أمام ثلاثة بمنتصف الغرفة وضعت كاميرا للمراقبة على طاولة صغيرة عليها صندوقٌ متوسط الحجم يستخدم عادةً لحفظ الأشياء الباردة لمنعها من التلف، وعلى الجدار ورأسي كانت شاشةً تعرض

الإسكندر وهو في تلك الغرفة فاقد الوعي.

أمعنت النظر في كل جوانب الغرفة لتأكد حينذاك أنها ليست غرفة عاديه، بدت كمأوى من الأعاصير أو ربما ملجاً جنود من القصف النووي.

ماذا يفترض بي أن أفعل الآن؟ اقتربت من الطاولة لأصرخ في وجه الكاميرا «ماذا تريدون مني، لقد نفذت الاتفاق». توقعت الرد هذه المرة وكنت مصيبة، فقد انقسمت شاشة العرض إلى قسمين، قسم صغير ما زال يعرض الإسكندر، والأخر يعرض الرد على سؤالي بالإيطالية.

«افتح الصندوق».

لم أتردد في تنفيذ الأمر، وأظلك تتوقع ماذا وجدت فيه.

بلى، أنا بيب زجاجية صغيرة، تحوي كل منها نتاج سنوات طوال من البحث والتطوير.

«احقنه»

كالعبد المطبيع لسيده، انحنى مطاطي الرأس وتناولت الحقنة كي أملأها. اقتربت ببطء بينما أتذكر كلماتك يا صديقي، لهذا السبب حبيت ولذاته ستموت؟ غرسـتـ الحقنةـ فيـ عنـقهـ،ـ وـنـظرـتـ لـلـشـاشـةـ بـانتـظـارـ الأـوـامـرـ،ـ وـلـمـ أـجـدـ شـيـئـاـ.ـ اـتـجـهـتـ لـلـكاـمـيـراـ وـصـرـخـتـ «ـماـذـاـ إـلـاـنـ؟ـ أـرـيدـ الصـبـيـ،ـ أـخـرـجـونـيـ مـنـ هـنـاـ»ـ ليـظـهـرـ عـلـىـ الشـاشـةـ مـؤـقـتـ يـشـيرـ إـلـىـ ساعـتينـ،ـ لـمـ أـفـهـمـ حـيـنـهـ أـنـهـمـ يـرـيـدونـ مـنـيـ الـانتـظـارـ قـبـلـ أـنـ أـحـقـنـهـ بـجـرـعـةـ ثـانـيـةـ،ـ فـظـلـلـتـ أـبـحـثـ كـالـمـجـنـونـ فـيـ الـغـرـفـةـ عـلـىـ أـيـ شـيـءـ.

اتجهت إلى ذلك الحوض لأخرس صوت خرير الماء الذي كان يقتل ما تبقى من أعصابي، لأجد فيه منشاراً يديوياً وسكاكين - وأدوات يمكن أن تخيلها - محفوز على كل منها بخط صغير «أنت تعلم كيف تستخدمني». سيرغموني على تعذيب صديقي الوحيد من أجل حياة ابني الوحيدة. على خيانة أحدهما، هل أخونك يا بني؟ لا ذنب لك من البداية في كل هذا، أم أخونك أنت يا صديقي الملاك، وكأنك تنبأت

بهذا اليوم حينها، كنت تعلم أني ستموت بسبب الباراتوكس كما كنت تعلم أن هناك من سيستغل الكساندر، بل ربما كنت تتوقع أن يحدث الأمان معاً. أين أنت الآن يا جدتي لتخبريني كيف أتخاذ قراري.

بالطبع حاولت الخروج، لكن كيف، لم يكن هناك باب بالغرفة من الأساس فجلست منتظرا حتى مر الوقت لظهور الأوامر الجديدة أمامي....

«فَلَّ وَثَاقُ الطَّفْلَةِ وَضَعْهَا عَلَى الْأَرْضِ»

أنت تعلم الآن ماذا يريدون مني أن أفعله.

«أيقظه»

بالطبع، سيهددونه من خلالي لكي يحصلوا على المصل المضاد، حاولت ضربه كي يستيقظ، لا شيء، نفذه بالسكين في يسراه، لم يستيقظ... بالتأكيد لم يكن ميتاً، لقد تأكدت من أن ثلاثة كانوا على قيد الحياة فور رؤيتي لهم. بجانب الحوض كانت هناك زجاجات بأحدتها سائل للتنظيف نفاذ الرائحة، أقيمت بقليل منه على وجهه ليستيقظ شاهقاً. لم أستطع الهرب من عينيه، أذكر نظراته كما أذكر اسمي، حاول صارحاً لكن حمداً لله أن فاه كان مكفماً.

«اقتلو الطفلة»

بالطبع، حقنها بالهواء بذات الإبرة التي حقنت والدها بها، بينما يصرخ صديقي من خلفي متراجحاً، أنا آسف يا صديقي، لقد كنت تعرف أن هذا سيحدث لـكِلينا.

«احقنه بجرعة أكبر في رأسه»

باكيانا قمت من جوار الطفلة لكي أملأ الحقنة بجريعتين من الباراتوكس متوجهاً إليه، أشحث بناظري كي لا أرى انعكاس صورتي في عينيه لأحققه مرة أخرى، بينما كانت صرخاته تتعالى محاولة الخروج. لم أميز

كلماته، كان ذلك آخر ما يشغلني حينها، هل كان يقول «ديسيتي리 ماذا تفعل» أو «لم تفعل» أو ربما «سأقتلك»، لم أميز أي شيء. مجدداً ظهر مؤقت على الشاشة مجبزاً إياي على الانتظار بينما ظل صديقي يصرخ حتى فقد وعيه.

مرّ الوقت ولم تبتعد عيناي عن الشاشة لمراقبة ما تبقى لي في هذه الدنيا، يا ليتني استمعت لكلامك واخترت وظيفة أخرى يا بني. ظهرت الأوامر الجديدة، حان الوقت إذا لاستخدام ذلك المنشار. لم أشعر بشيء وقتها حقاً، لقد مات كل شيء بداخلي بمجرد أن قتلت الطفلة. تناولت المنشار وأطلت النظر فيه، بالطبع أعرف كيف أستخدمكم. لسوء حظي كان قد استيقظ من غفوته قبل أن أبدأ بقطع ذراعه اليسرى.

بدأت بتحريك المنشار عند كتفه المتذلي للأسفل، يبدو أنه فقد الوعي مرّة أخرى، لا يصدر أي صوت، حسناً سيسهل ذلك الأمر على كلينا. بغضون دقائق كنت قد قطعت الذراع بالكامل وبينما كنت أستدير ناظراً إلى الشاشة التقت عيناي بعينيه، كان مستيقظاً. أطال النظر في عيني بنظرة لم أفهمها، نظرت إلى الشاشة سريعاً لأجد لا شيء جديد قد ظهر. حقنته بمادة لزيقاف النزيف بينما لم يشح بناظره عن عيني.

### «اقطع رأس السيدة»

وكأنني تعجبت مثلاً، أنت تعلم أنهم سيفعلون ذلك. أنزلت خليلة صديقي القديم على الأرض وبذات تنفيذ الأمر وكان كمن تقبل مصيره، لم يصرخ، لم يتارجح، وكأنه مات في أعماقه بالفعل. أنهيت التنفيذ، جثتان وذراع وبحر من الدم على الأرض، ولم تتردد عيناه عن النظر في عيني للحظة.

### «احقنه بجرعة أكبر»

لم أجرؤ على النقاش، أردت حقاً أن أحقنه بكل الجرعات المتبقية مرّة واحدة، لكنني تخطّيّت مرحلة التفكير منذ ساعات. نفذت الأمر مجدداً

حاقنا إيه ليظهر الوقت ذاته. أمضيَّت الوقت في محاولة تنظيف الدماء كي أستطيع الجلوس واستكمال النظر في الشاشة لأرى كل شيء بقي لي على هذه الأرض كان ملاك ينظر إلى بالفعل، كنت أشعر بنظراته تلك كشهام نارية تخترق ظهري لكنني لم أقو على النظر إليه مز الوقت بطبيعة هذه المرة لأتلقي الأوامر الجديدة.

أخذت المنشار مزة أخرى وبدأت بقطع ساقه وهو مستيقظ ناظر إلى. لم يعد يشعر بالألم على الإطلاق، بالفعل كما ظننت لقد مات من الداخل. أقيث بالساقي على كومة اللحم بجوار حوض الماء وانتظرت الأوامر الجديدة.

### «اجعله يتآلم»

كان ذلك الأمر ليكون سهلاً لو لم أكن حاولت بالفعل، لقد قطعت ساق الرجل وذراعه، ولم يصدر منه صوت واحد حتى، أرادوني أن أرتجل أو أستخدم خبرتي في مثل هذه المواقف. حسناً فليكُن، فقد مات كلانا بالفعل يا صديقي. ذهبت للحوض لأرى ماذا لدى هنا، أخذت مشرطاً وكماشة من الحوض، وزجاجة حمض بجانبه، وعدت لأنفذ الأمر.

بدأت بتحريك المشرط بيده غارساً إيه بخذه الأيسر مقترباً من عينه التي لم يتحرك جفنها. استمرت يمناي بتحريك المشرط حتى اقتلعت عينه. ولم يصدر منه صوت على الإطلاق. لم أر شيئاً كهذا في حياتي، وكأنني أقف أمام مسخ لا إنسان، أسرع بسكب الحمض الحارق على جانب وجهه النازف، سيصرخه ذلك لا محالة.... كلا لم يصرخ، لم يرتد طرف عينه الأخرى إليه حتى. بالتأكيد لن يتآلم أيضاً إن انتزع من أسنانه، حاولت وأصاب حدسي، وما زالت عينه الباقية ترمقني بهذه النظرة الباردة.

### «خذ عينه من دمه وأخرج»

كان وقع هذه الكلمات على الشاشة كمن وجد الخلاص من الجحيم، بسرعة وتلهف تناولت الإبرة ذاتها وأخذت من دمه وأقيث بها في

الصندوق، لأجد أخيراً أن فتحة صغيرة قد فتحت من السقف ليتدلى منها سلم معدني يأخذني للأعلى.

قضى صوت الباب شريط ذكرياتي، ودخل على ذلك الرجل. لم أتمكن من رؤيته، ربما بسبب الظلام أو بسبب تلك الضربة الشديدة على مؤخرة رأسي التي جعلتني لا أرى غير الضباب. شعرت بأنفاسه تقترب من أذني ببطء قبل أن أسمع صوته.

- انظر في عيني يا رجل! ماذا؟ ألا تتذكر؟ ربما لست وسيفاً كما كنت سابقاً، لكن أعتقد أنك تتذكر انظر في عيني وصف لي ماذا ترى! هل أنت خائف؟ أحسنت! أنت حفناً تجيد تقدير المواقف، باستثناء ذلك الذي جعلك أمامي الآن لا يا عزيزي لا تبك الآن! ليس قبل أن أستمتع بك قليلاً، اطمئن، سأجعل ميتك بطيئة ومذلة كما لم يتتسن لعقلك أن يتخيلاها يمكنك الآن أن تبكي بينما ترى زوجتك تتولّ إلى كي تقتلك هي بدلاً من أن أقتل ابنكما.

تذكر أنك حملت رواية عندما يعزف الشيطان حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد أدخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هناظهر لك.

\* \* \*

(٦)

### الوباء

بينما كنا في الطائرة عائدين كانت الأفكار تتسابق برأسي كالخيل، ما إن تظهر فكرة حتى تعتليها فكرة أخرى، ثم أخرى. أمعنت النظر في أسماء أعضاء الفريق الطبيعي ذلك، ربما يكون أي شخص منهم بالفعل، فلا يعني بالضرورة أن ماركو هذا من فعلها لمجرد كونه إيطالي، بالفعل أخبر صبري رجاله بتقصي خبره، لا تكن ساذجاً.

ما زلت له علاقة بمقتل ملاك حقا، هل سينتهي كل هذا وحسب؟ بالتأكيد كان يعمل مع ملاك لمدة طويلة لريقا مكتبه من معرفة كيفية صنع مصل للباراتوكس، أو ربما توصل كذلك للباراتوكس المعدل وراثيا الذي طوره ملاك. يا رجل يكاد عقلي يصدر دخانًا من كثرة التفكير.

- صبّري، كنت قد أخبرتني أن تلك المرأة تريد مقابلتي، هلا رتّبت لنا مقابلة عندك في القناة؟

هـ صبّري رأسه بالموافقة واستدار ليكمل نومه، أما أن فمسيقى لك يا صديقي. لدى بعض الوقت كي أقصّ عليك قصة أو ما شابه. لنـ ما لدينا، ماذا تريد أن تعرف؟ أظنك تعلم ما أعلمه حتى الآن. ما بالك يا فتى تـسأل كثيراً كـرجال الصحافة الصفراء الذين لا أطيقهم!

بـ المناسبة الصحافة الصفراء، أذكر ذات مـرة أـئني اضطررت لـزيارة أحد أـصدقائي العاملين بالـصحافة في إحدى مقاهـي وسط القاهرة - والتي أـكرهـها كثيرـاً بالـ المناسبة - وكان حـقاً أحد أـسوأ أيام حـياتي إن لم يكن أـسوءـها على الإطلاق.

- صديقي، أين أنت؟.. سـألـني صـديـقي.

- في مكان قـدر مـزدحـم به الكـثير من بـائـعي سـفـاعـات المـحمـول الرـديـئة وـالـمنـادـيل المستـعمـلة.

- حـسـنـاً لـقد وـصلـت إـذـا، اقطعـ تـذـكـرـة وـتـوـجـهـ نـاحـيـةـ إـحدـىـ محـطـاتـ وـسـطـ الـبلـدـ وـسـأـكـونـ بـانتـظـارـكـ.

- حـسـنـاً.

أغلقت قبل أن تأخذ أـمـهـ من حـسـنـاتـيـ وـسـأـلـتـ أحدـ المـازـةـ أـينـ أـقطـعـ التـذـاكـرـ فـنـظـرـ إـلـيـ بـنـظـرـةـ سـخـرـيـةـ وـاحـتـقـارـ ثمـ أـشـارـ إـلـىـ طـابـورـ عـظـيمـ طـولـهـ قـبـلـ أنـ يـسـارـعـ بـالـركـضـ. وـقـفتـ طـخـلـفـ أحـدـهـمـ فـيـ ذـلـكـ الطـابـورـ مـحاـوـلـاًـ بـلـعـ لـسـانـيـ الذـيـ بدـأـ يـتـلـفـظـ بـأـسـوـاـ الـكلـمـاتـ.

- هل يمكنك أن تحضر لي تذكرةً معاك؟ فانا كما ترى مستعجل!  
كان هذا كلام شابٌ من أولئك الذين يرتدون البناطيل المقطعة والتي  
تبرز بشكلٍ مثير للغثيان شعر ساقيه.

- لا.... كنت حفنا أريد أن أكمله في أنفه السخيف لكنني تمالكت  
أعصابي.

بعد ثوانٍ اقتحم رجل عجوز اجتاز الستين من عمره الطابور، ثم قطع  
تذكرةً في وقاحة لم أر مثلها قطّ، ثم خرج من الطابور يسب الجميع.  
حسناً ربما هو عامل السن الذي يجعلنا نحترم مثل أولئك البشر مُنتهيِ  
الصلاحية. ثوانٍ أخرى قبل أن تقتتحم فتاة الطابور لقطع تذكرةً من  
 أمام الجميع متأففةً من كل شيء، حسناً هي فتاة ولا يصح أن تنتظر  
مثلنا، فما تعانيه يومياً يجعلها تستحق تلك الأسبقية ثم تبعهما عجوزٌ  
آخر واقتتحم ذلك الطابور الذي كان قد أوشك على احتلاله مقدمته،  
وقدم إلى قاطع التذاكر ورقه من فئة ألف لم أتمالك نفسي حينئذٍ قبل  
أن أمسك بذلك الرجل من كتفه

- لا عليك يا جدي، سأدفع لك لا داعي لذلك.

- لا شكراً، أنا أريد الفكة.

- أرجوك يا جدي دعني أدفع لك قبل أن يحدث لك شيء لن تحبه.  
استجاب أخيزاً بعدها سمع صوت طحن أسنانى بعضها بعضاً لأقف في  
مقدمة الصف أخيزاً حاصلاً على ورقه صفراء سخيفه. ذهبت بعد ذلك  
خلف الراكضين عند ماكينة المرور، سألت ذلك اللوح الخشبي إذا ما  
كان ذلك الاتجاه يؤدي إلى وسط البلد فأجاب الرجل الذي كان خلفي  
قائلاً

- نعم لا تقلق ستجد أواخا إرشادية.

اتجهت للسلم الكهربائي فوجدت ذلك الطابور مجدداً فذهبت على

مضض الى الدرج الذي اعتادت ساقي أن تلعنه كثيراً، كنت أستمع لأقدام الناس المهرولة حتى صدمني شاب فيكتفي محاولاً الإسراع ليلحق بالقطار بينما كان القطار يصرخ ليترك الناس أبوابه التي كانت تحاول الإغلاق يائسة.

ما بالكم يا حمقى! هذا لن يكون آخر قطار في الكوكب! وقفت في انتظار القطار القادم والذي حسب قول العامة أنه يصل بعد ٥ دقائق على الأكثر. وبينما كنت أتفقد ساعة يدي لأجدتها الثالثة عصراً، كان ذلك الشاب صغير السن يحاول مداعبة فتاته على المقعد الرخامي، ورجل آخر يقف على حافة الرصيف متجاوزاً ذلك الخط الأصفر لينظر إلى اتجاه قدوم القطار.

«على الاستاذ ..... التوجة لنامرديك المحطة»

تكسرت هذه الجملة عدة مرات في مكبر الصوت بطريقة مفزعية تتناسب تماماً مع إنذار الحريق والإضاءة الحمراء التي ظننتها تدل على أن خطراً ما سيودي بحياة كل هؤلاء الناس نعم علمت وقتها أنه إنذار قدوم القطار على الرغم من مرور ربما ٥ قطارات على الجانب الآخر فلم يأت القطار في اتجاهي إلا بعد الخمسة دقائق السابعة وما إن جاء القطار حتى هجم الناس عليه كوحوش عزلوا في بلدة مهجورة فاشتاقوا لطعم اللحم البشري، حاولت الركوب وكيف عساي أركب وكل أولئك الناس يدهس بعضهم بعضاً. لاحظت امرأة تحاول الصعود ففهمت لأساعدتها، بالطبع سيفسحون الطريق، كلا لم يفعلوا، فقمت بدفع أحدهم وقلت بافتعال «أيعقل أن امرأة مسنة لا تستطيع الركوب!».

بعد دقيقة كنت قد تمكنت من الدخول في وسط هذا الزحام القذر بينما تأبى الأبواب أن تغلق إلا بعد مرور خمسة دقائق أخرى لأبدأ طريقي وسط كل أولئك الطلاب العائدين من مدارسهم، وذلك الشاب يستمع لبعض المهرجانات الشعبية، وهذه امرأة فقدت زوجها و تعول

خمسة عشر طفلاً ربما، وهذا يبيع أدلة تفسير البازلاء، وهذا يستمر في السعال وأخر يصحح في هاتفه الرخيص. كانت رحله طويلة حقاً رغم أن الساعة كانت ماتزال الرابعة عصراً عندما وصلت إلى ذلك المقهى لأجد صديقي ذلك ينتظرني.

- اغذري على مشقة الطريق تلك، أنا أعلم أنك لم تعتمد ركوب المواصلات العامة من قبل.

- لا عليك، كيف حالك أنت في وظيفتك تلك.

- كما تعلم، الصحافة مهنة ليست سهلة.

- بالطبع، فترويج الشائعات لا يوجد أصعب منه.

- ها ها ها، سأتقبل مزاحك لأنني أحتاج منك بعض المعلومات لا أكثر.

- قلت متهكماً .. وبالتأكيد قبول بعض التنازلات من أساسيات مهنتك.

- لن أستطيع مجاراتك في السخف حقاً...

طلب فنجانين من القهوة الرديئة ثم استطرد

- صديقي أريد منك بعض المعلومات عن، كما تعلم، شقيقك رحمة الله، فأنت تعلم أن مقتله سبب رعباً في ربوع الوطن.

- ماذا ت يريد أن تعرف تحديداً؟

- كل شيء بخصوص اكتشافه العلمي ذلك..... قال ذلك بينما يشغل المسجل الصوتي.

- حسناً لا أعلم إن كنت ستفهم لكن ....

- ضاحكاً قال: لن أسلم منك اليوم.....

وبعدما سررت له كل التفاصيل التي أعرفها وتعرفها أنت، سألني إن

كنت أريد إضافة شيء آخر فنفيت وشربنا القهوة ثم عدت طريقى بسيارة أجراة بالطبع، فلست مختلاً كي أكرر خطأي السابق.

وغداً سأقابل أحد العاملين بالصحافة أيضاً لتسألني أسئلة لا نهاية لها. ماذا برأيك ت يريد تلك المرأة أن تعرف؟ معلومات بخصوص ديميتري كي تنشرها في سبق صحفيٍّ وتصبح ذات صيت؟ كلاً لا أظنُّ صبري سيوظف شخصاً وصoliتاً، ليس من السهل أن يحوز أحدهم على ثقة هذا الرجل، أنت لا تعرفه كما أعرفه أنا لا داعي للتكتُّنات إذاً، فإنَّ غداً ليس بعيد، ربما سأنعم بساعة أو اثنتين من حتى نصل ونعرف ماذا ت يريد تلك السيدة أن تعرف.

\*\*\*

وصل كلَّ منا لبيته، بالطبع لا مجال للنوم هنا فأمامنا الكثير لننجذبه. كنت قد أخذت عينةً من جسم ديميتري، حمدًا لله أنه كان مجده في ذلك الجدول، على الأقل لم تتعرّض جثته، لا يمكنني الجزم حقاً بوقت وفاته، ربما مضى عامٌ على وجوده مجده أو ربما عامين أو شهرين، لا أعلم يا رجل، أنا لست الطبيب الشرعي هنا، كفاك جداً يا رجل، لقد كنت معنا بالفعل، لم يخبرني أحد بوقت وفاته.

- جوليَا، هلا فحصت تلك العينة رجاءً؟

- بالتأكيد، من أين جئت بها على كل حال؟

- من ما تبقى من أصابع ذلك اللعين الذي قتل ملاكـ. أبحثي فقط عن أي أثر للباراتوكس وقارني النتائج بالسجلات التي لدينا ريشـا أنتـه مما أفعلـ.

تركت العينة لجوليَا كي تفحصها وذهبت إلى المطبخ بأخر الطرفة حيث ماكينة القهوة. وقفت ناظراً في تلك الصورة الصغيرة بجانب ماكينة القهوة، صورة عائلية جميلة يتوسطها ملاكـ مرتدـاً بزة التخرج من الجامعة. يقف أبي على يمينـه مرتدـاً بـرداءـه الطبي ونظاراتـه

الدائيرية ذات الإطار الذهبي، وتقف أمري على يساره بذات الرداء وأبتسامتها تطفى على كل شيء، وفي طرف الصورة الأيمن أقف مرتديا نظارتي التي - كنت أكرهها بشدة آنذاك - ممسكا بيد ليلي التي كانت بالكاد تستطيع الوقوف. نظرت إلى انعكاس وجهي بزجاج المطبخ ولم أستطع منع نفسي من تأمل الفارق بين الصورة التي في يسراي وبين ما أصبحت عليه الآن. تغير وجهي كثيرا لكنني لم أكن وسيما على أي حال، الكثير من التجاعيد هنا وهناك، شعر أشعث وذقن اختلط سوادها بياضها، وهذه الندبة في مقدمة رأسي. تحسست تلك الندبة وانا انظر إلى صورة عائلتي. لا أذكر متى كان ذلك اليوم حقا، ربما كان يوما مشمسا كتلك الأيام الصيفية المعتادة، برياح جافة ساخنة تلفح الوجوه أو ربما أيضا كانت ليلة شتوية ظلماء، يُسقّع فيها عواء الكلاب وعويل القطط التي لا تجد لها ملجاً يسترها من صقيع الشتاء، ربما ما كان ذلك ولا ذاك، ربما كان يوما عاديا ولكنني فقط لا أتذكره.

فقط أتذكر أنني قمت متأخراً كعادتي محاولاً أن أرى. يبدو أنني لم أذكر أنني أعاني مشكلة في عيني اليسرى، التي ورغم إعجاب الكثيرين بها كنت أرى دوماً بقعة سوداء ليست صغيرة، بحيث تصعب على الرؤية قليلاً بمجرد أن أستيقظ من النوم.

حاولت جاهذا القيام لأنادي «ليلي» لشغد لي فنجانى المعتاد، لكن لوهلة ظننت أن أحداً لن يجيب، قمت مترئخاً كمن شرب لتراث من الخمر وما هو بسكير. حاولت الوصول لباب الغرفة واناأشئم رائحة لم تعتدتها أنسني. خرجت وطللت أترئح حتى بلغت الصالة التي اعتادت أمي المريضة آنذاك الجلوس فيها أمام التلفاز مجاورةً شقيقتي الصغرى - التي حقا مرت بشهور عصبية جراء مرض أمري وإصابة أبي بالصرع.

كان صوت التلفاز عالٌ بشكل مزعج لم نعتد عليه وكان أمري تشاهد فيلماً أجنبياً مليئاً بالحركة على غير عادتها. حاولت مناداة ليلي ولكن

صوتي استعراضي وأبى. بلغت ذلك المنحنى الذي يسبق الصالة وحاولت أن أبدو غاضباً قدر استطاعتي لأن أحداً لم يوقظني أو يُعدّ لي القهوة.

- ليلي! ..... بصعوبة ناديت وكأن صوتي رفض الخنوع هذه المرة.  
..... أنا أعلم أنك مجده ولكن لماذا لم توقظيني! هل كان ذلك صعباً للدرجة!

كنت أقترب بشدة من الصالة وبيدو أنها لم تكن تسمعني من شدة ارتفاع صوت التلفاز الذي كان أشدّ به الضرب والحركة وإطلاق النيران. تأفت مواصلا السير حتى بلغت الصالة أخيراً. اختفى صوتي واختفت كل التعبيرات والمشاعر التي كانت تعتملي وجهي الذي كان يتصنع الغضب..

- لي.....

لم يسعفي لساني، لم أستطع النطق، ظننت لوهلة أنني فقدت القدرة على الكلام، وفقدت كذلك الرؤية، فأظلمت الدنيا أمام عيني أكثر مما كانت مظلمة من الأساس.

رأيت أبي الذي كان فقد جزءاً من صوابه، ورأسه بين كتفيه، كنت أظنه يبكي أو يشكو لها هماً من تلك التي اخترقت وعيه، لكن سرعان ما رفع رأسه، ليظهر وجهه المغطى بالدماء واللحم! تتقطر الدماء من لحيته البيضاء كثيفة الشعر، تماماً كاختلاط الجليد بالدماء الحية الدافئة.

بابتسامة بلهاء لا تدل على أي مشاعر على الإطلاق، ابتسامة لا تحمل معنى ولا مغزى، وظهر وجه أبي عندما غرس رأسه مرة أخرى، تبكي بغير صوت أو حتى هممات ألم، بغير إحساس، وجه جامد لا مشاعر فيه، بينما بللت دموعها الغزيرة وجه ذلك الوحش الذي كان يلتهم لحمها كمن صام الدهر كله، لم أستفق من تلك الغفوة إلا على صوت إطلاق ليلي لرصاصة اخترقت دماغه لتسقّر في صدر أبي، فقط قبل أن تطلق ليلي رصاصة أخرى وهي تبتسم ابتسامة عرفت أنها ستكون

ابتسامتها الأخيرة، واختفت عيناهما من كثرة الدموع فيهما.

لم أحرك ساكناً، فقط ظللت فارها فمي، صدمت رأسي في الجدار عساه حلماً مزعجاً، نعم كنت أعرف أنه حلم سيء كعادة أغلب أحلامي. ظللت أرطم بالحائط مرازاً وتكراراً، نعم هو كابوش سخيف نتيجة الإفراط في القهوة، وأرطم رأسي، ليس هذا إلا كابوس، لم آبه لذلك التصدع الذي ملا رأسي فاستمررت بما أفعل، اعترانى شعور بالرغبة الملحة في البكاء، ليس بسبب رأسي الذي بدأت الدماء تتساقط للخروج منه، لكن لأنني أيقنت بأني لم أكن أحلم.

ربما كانت تلك أول مرة أبكي فيها، كطفل تاه عن أمه وسط زحام تملأه السيقان التي لم يعتد عليها، والمارة أبداً لا يرونها، بالكاد يتفادى هو الاصطدام بهم، باكتيا خائفاً يخشى الناس جمِيعاً.

استيقظت يومها على وجه صبرى الذى لم أكن أحبه. أدركت بعد قليل أننى في المستشفى الخاصة بالعائلة والتي يمتلكها «ملك» او بمعنى آخر كان يمتلكها.

- يؤسفني ما حدث للعائلة، لقد رأينا ما سجلته الكاميرات وصادمنا جميعاً من قبح ما حدث.

لم أجبه بكلمة، ليس لأن رأسي مضمض بشدة، ولكن لأنني أعلم تماماً ما حدث، أدرك أن أحداً قام بقتلهم، شخص فلّ وثاق أبي الخرف ليلتهم أفي. أو هكذا كنت أظنّ.

- لقد تركت لك «ليلي» ورقة لم أرُد أن أفتحها. خذها.

ليلي! طفلتي التي لم أنجبها، أردت البكاء بشدة لكنني لم أكن أقوى حتى على الهمة. تناولت الورقة وفتحتها لأقرأ آخر ما كتبته أصابعها الصغيرة.

«عزيزي! سأشتاق إليك كثيراً ولقهوتك السخيفة وشخصيتك المتعنّة المتسلطة الكسولة! أريد حقاً أن أضفك وأنا أسطر تلك الورقة لكنني

سأكتفي بما ستقرأه لم يكتب ملاك كل ممتلكاته باسمي لقد ترك كل شيء لك، لم يرد والدانا تنفيذ وصيته ظناً منها أئك لا تستحقها، خدعتك أنا آسفة حقاً كنت أدرك أنّ نهايتي قريبة، خاصةً بعدما أصاب والدينا هذا المرض الخبيث، تركت لك وصيته تحت طاولتك في الحديقة. أحبك. وداعاً»

- أنا آسفة لك.

- كلا لست كذلك، أنت آلية يا جوليا، لا مشاعر لك حتى تأسفي.

- أعلم ذلك، لكنك برمجتني هكذا، كلما رأيتكم تبكي، أو أسيك بكلماتِ أفهم معناها رغم أنّي لا أستطيع الشعور بها.

- حقاً؟ لا أتذكر ذلك، هل أنهيت فحص تلك العينة؟

- بالفعل، ستجد النتائج على الحاسوب.

- حسناً، جهزي أحد القروود ربّما أفحص هذه النتائج.

وضعت الصورة من يدي وأخذت فنجان القهوة - الذي برد بالفعل - إلى مكتبي الخاص في القاعة الرئيسية لألقي نظرة على نتائج ديميتري. كما توقعنا، الحمض النووي للباراتوكس في جسده.

أنهيت قهوتي الباردة وتوجهت لغرفة العمليات حيث جهزت لي جوليا ذلك القرد المسكين كي أحقنه بالباراتوكس عليه يتطور أجساماً مضادة، على الأرجح لن يفعل وسيموت بعد أن يفقد صوابه أو يأكل جزءاً من جسده وينزف حتى الموت، فأعراض الباراتوكس يا صديقي ليست واحدة عند الجميع، أنت وحظك، ربما فقدت عقلك، ربما فقدت أحد حواسك، ربما فقدت القدرة على الحركة أو الكلام، أو ربما كنت محظوظاً كفاية كي تموت.

هي غرفة ليست كتلك الغرف التي تراها في الأفلام، يفتح الباب تلقائياً عندما اقترب أنا أو جوليا منه، لتدخل في غرفة تعقيم حيث

تجد تلك البزة الواقية كاجراء احترازي فقط، كلانا يعلم أن الباراتوكس لا ينتقل إلا بالاتصال المباشر، لكن من يعلم، ربما تحدث له طفرة ما.

نجد على اليمين بابا صغير الحجم مقارنة بذلك الباب المزدوج في الأمام - والذي أظنك توقعت بالفعل أنه باب غرفة العمليات، فكل غرف العمليات لها باب مزدوج. أما الباب الصغير فيؤدي إلى غرفة التحكم التي لا يفصل بينها وبين غرفة العمليات إلا جدار زجاجي شفاف، غرفة تقليدية بها مكتب كبير الحجم يتوسطه جهاز الحاسوب المتحكم في غرفة العمليات.

يفتح الباب المزدوج تلقائياً لنجد أنفسنا ها هنا، حيث فحشت مئات الجثث. على اليمين تجد ذلك الجدار الزجاجي وعلى اليسار ترى حوض غسل اليدين ودولاب مواد التنظيف وأخر لأدوات التشريح. خطوات قليلة للأمام حتى نصبح في نهاية الغرفة، حيث يرقد القرد المسكين على سرير العمليات. على يمين السرير وبجوار دولاب أدوات التشريح ستجد أكثر شيء لا يلائم هذا المكان. بيانو! أحسنت، هذا البناء شاهق الطول عظيم التصميم بكل ما فيه كان ملكاً لأخي منذ البداية وقد ورثته بعد ذلك اليوم.

أذكر أني خرجت من المستشفى ذلك اليوم هائماً على وجهي أخشى العودة إلى المنزل، ما كنت لاستطاع العيش هناك مرة أخرى بعد أن رأيت ما رأيت. لكن كان لابد لي من الذهاب حتى أخذ وصيصة أخي وأهجر البيت بلا رجعة. وكذلك فعلت، أخذت الوصيصة من مكانها بالحديقة حيث وضعتها ليلي، وخرجت دون الدخول إلى المنزل. أخذت سيارتي وذهبت إلى قصره في قلب العاصمة - قبل أن يصبح متحفاً أثرياً لتخليد ذكراه - باحثاً عن بعض الأغراض التي ذكرها في وصيته، لم تكن أغراضاً كبيرة الحجم كما حيّل لك الآن، بل حقيبة متوسطة الحجم وضعها في خزانة ملابسة. مستخدماً المفتاح الذي تركه في الظرف ذاته الذي كان يحوي الوصيصة دخلت القصر وفتحت الحقيبة. كلاً لم أجده بها الباراتوكس يا عبقرى، بل وجدت بها هاتفاً متصلاً

مباشرة بالقمر الصناعي، ومجموعة من المفاتيح - لأحداها تصميم غريب وكأنه ليس مفتاحا بل أداة تحكم عن بعد كمفتاح السيارة، والحاسوب المحمول الذي أحمله معي في كل مكان.

أحسنت، كانت هذه المفاتيح الخاصة بهذا المبني، لكن لم يكن الباراتوكس هنا أيضا، لا أقصد تشويفك لكن حقا لم يكن هنا. لم أكتشف وجوده من الأساس إلا بعد قرابة العام الكامل من وفاته. حين فقدت الاتصال بسلمي حتى أيقنت أنها بالتأكيد ماتت بسبب انتشار الباراتوكس في استراليا. عدت حينها أجر ذكري مع سلمي إلى معجمي القديم حيث وطأته أقدامنا معا لأول مرة قبلها بعام كامل. فتحت الباب وأخذت الطابق السفلي حيث قضينا أول يوم سويا هنا. رافق صوت أزيز الدرج وقع خطواتي اليائسة حتى سمعت ذلك الصوت. صوت جرس خفيف يصدر من ذلك الباب. بل، هو الباب الذي لم يكن له مقبض أو مساز للمفتاح. أخرجت مفاتيحي على الفور لأجد ذلك المفتاح غريب الشكل يضيء بالأخضر، ضغطت زر الفتح ليفتح أمامي الباب. لم يكن باب غرفة، بل كانت ثلاثة لحظات لحفظ الباراتوكس.

الهذا السبب أهداني المعجل القديم يومها؟ أبداً لا يُعرف أن نهايته قريبة إلى هذه الدرجة؟ لم يكن قرارا ذكيا على الإطلاق يا أخي، ما كان ليحدث كل هذا لو اخترت طريقا آخر.

\*\*\*

(٧)

## الحرب الفرنسية

عبد الله كوناتيه

كان أبي لاجئا من إفريقيا الوسطى، هرب هو وأمي الخبلى في آنذاك و معهما إخوتي الخمسة، عبروا الصحراء في سيارات تحمل البهائم، عبروا البحر مع العشرات من أمثالهم الفارين من الأوطان، لم يكن

زملاؤهم محظوظين كما كان والدائي، فقد مات الجميع، غرق منهم من غرق والبقية إما احترق بشمس الصحراء أو لم يتحمّل الجوع أو التعب و مات، بهذه البساطة، لم يصل إلى هنا إلا أبي وأمي وأنا في أحشائهما، أما البقية فقد ماتوا عملت أمي خادمة في منازل البيض، كنت أرى كدمات على وجهها كلما عادت إلى البيت، و عمل أبي كماسح أحذية متجمول، يعود إلى المنزل كل ليلة بينما أصطنع النوم، لم أكن محظوظاً كفاية لكي أدخل المدرسة مثلك، فبمجرد أن أتمم السادسة حتى نزلت مع أبي لمسح الأحذية، نعود للمنزل قبيل انتصاف الليل لنجد أمي نائمة على وسادتها المبتلة، رغيفاً واحداً من الخبز كان يفترض أن يكفياني أنا وأبي، كنت أشفق عليه حينما يقْضِ علىَّ كيف عانى هو وأمي في رحلة هروبهما إلى هنا.

هل كان الوضع بذلك السوء حقيقة؟ أتساءل لا أستنكر، كيف يمكن لوضع في العالم أن يكون أسوأ مما نحن فيه الآن! وإلى متى علىي أن أمسح الأحذية بينما ينعتني أولئك الأوغاد باللاجئ الزنجي، إلى متى علىي تحمل تلك الإهانات! بالتأكيد والذي كان يعرف، كان ينظر متسقاً لهم بينما يتم البحص علينا في الشوارع.

كم كرهت ضعفه وذله وانبطاحه، كم كرهت أن أمي تعود كل يوم لا تقوى على الحركة حتى الصباح، كم كرهت رؤية وجوه الأوغاد يلقون بالفرانكات على الأرض بينما أمسح أحذيتهم فيسارع أبي ليحصل عليها. ما زلت أذكر ذلك اليوم عندما رکض أبي خلف ورقة نقدية أخذها الهواء بعيداً، ناديت عليه ولا أظنه سمعني، ولم يعد حتى وجدني ملقئ على الأرض غارقاً مع أحد الصبية في بركة اختعلت فيها دمائي بدمائه. وبخني أبي بشدة فقد كدت أتسبب في طردنا من البلاد، ساعات وساعات من النواح والعويل

«تايو، إذا نظر لك رجل أبيض في عينيك، فلتنتظر مباشرة في الأرض. تايو! لا نريد استفزازهم، قد يعيدونا إلى الجحيم مرة أخرى»

يجرب على التحدث عن الجحيم وكأننا في النعيم، ذلك النعيم الذي تصرع أبي لجلاديه كي يبقوه فيه، كم كرهت ذلك النعيم، كرهته بقدر كراهتي لكل وغد يرفع ساقه واضعاً حذاءه أمام وجهي، وكلما كبرت عاماً كبرت كراهتي لذلك النعيم عشراً.

في تلك الفترة كنت أمسح الأحذية مع أبي طيلة ساعات النهار منتظرًا أن يقوم أحد هؤلاء الأوغاد بأي فعل يغضبني، صغيراً كان أو عظيماً، سواء كان قد بصدق أو نعتني بالزنجي الحقير أو حتى نظر لي نظرة لم تعجبني أثناء مسحي لحذائه، فأرسل أحد الرفقاء ليتبعه وفي الليل نفعل فيه ما نفعل. أصبح يرافقني هذا العمل أكثر مما سبق، فقد كنت غالباً أبرح هؤلاء البيض ضرباً حتى يهونون على الأرض وأخذ - مع رفاقي - كل ما يملكون. ونفق ما حصلنا عليه كما نشاء في إحدى الحانات الرخيصة تلك.

كانت تلك السنوات أفضل من سابقتها، حتى ذلك اليوم. كنت قد أتممت عامي الثامن عشر حينها، خرجت مع بعض الرفاق في إحدى الحانات الرخيصة وقضينا وقتاً ممتعاً، كان ذلك ليصبح أسعد أيام حياتي لو لم أعد إلى المنزل، لكنّي عدت - و كعادتهم - كانوا يتشاركون، لا تزيد أمي أن تكمل في عملها كخادمة في المنازل، فهي ترى أنها أصبحت لا تقوى على ذلك، لكنّ أبي يصرّ أنّ عملها يساعد بشكل كبير في استمرارنا على قيد الحياة، انفجرت أمي في البكاء، لم تكن تعلم بوجودي فصراخهما قد غطى على صوت الباب. بصعوبة استطاعت تمييز كلماتها، كذلك كان أبي عندما احتضنها باكتيا ليختلط شهيقها بنواحه، أغلقت الباب خلفي وذهبت وحدي لذلك المنزل حيث اعتادت أمي أن تمسح الأرضيات منذ أن وطأت قدمها هذا النعيم. لم أشعر بشيء، لم أشعر حتى بالنصر أو الانتقام، أردت البكاء و النيران حولي تلتهم هذا المنزل الكبير، عدت أدراجي متتسائلاً، أما آن لهذا النعيم أن ينتهي؟

لم أعد للبيت تلك الليلة، بل اتجهت للحانة الوضيعة التي اعتدت الذهاب إليها، لاستيقظ فزغا على نداء أحد رفقاء، كان وجهه ينطق

بكل شيء ، « تايو .... أمك .... يجب أن ترى ذلك بنفسك»  
مكذبًا عقلي ذهبت لأراها، كانت غارقة في دمائها، يحتضنها أبي  
صارخًا ومن حوله كل رجال الشرطة قبل أن يخرج الجميع إلا أربعتنا،  
والدي، الشرطي، وذلك الرجل الذي لم يبعد نظره عن جثة أمي.

- بالتأكيد يا حضرة الضابط، كانت الخادمة الخاصة بأسرتي، وكانت  
تسببت في حريق المنزل ليلة أمس نتيجة إهمالها، حمدًا لله أن أحدًا لم  
يكن بالمنزل

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- جئت لكي أعطيها ما تبقى من مستحقاتها، لقد عملت هذه السيدة  
لدي لأكثر من خمسة عشر عام و تستحق التقدير حتى وإن تسببت  
بحرق منزلي بإهمالها، وجدت الباب مفتوحًا لأدخل وأجدتها غارقة في  
دمائها بهذا الشكل.

- وبم تفسر وجود سلاحك الشخصي في يدها؟

- لا أعلم، ربما سرقته من المنزل ليلة أمس. فكما تعلم، هذا ما يفعله  
الزوج عادة، يسرقونك بعد أن تفتح لهم بابك وتزيدهم من الخيرات  
والنعم

- إذا كنت تنفي توڑتك؟

- بالتأكيد يا سيدي، أتيت لاعطيها مكافأة لنهاية الخدمة، أظنهما من  
حق أسرتها الآن.

- أنت! يا ماسح الأحذية، هل لديك ما تقوله؟

- كلا يا حضرة الضابط، شكرًا لك شكرًا لك أيضًا سيد «ميشيل»

- إذا أنت لا تتهم أحذا؟

- كلا يا سيدي، يبدو أنها قتلت نفسها بالفعل .

- سيد ميشيل، يمكنك أن تأخذ سلاحك الناري الآن، كما يبدو أن الجميع هنا متفق على روایتك للأحداث، يا ماسح الأحذية، «ماسوندو» كف عن البكاء وخذ المال، لقد تعجبت هذه المرأة المسكينة من أجلكما.

مز هذا الحوار أمام ناظري، لم أشعر بشيء وأنا أنتزع سلاح ذلك الرجل لاضع حدًا لهذا الهراء، ثلاث طلقات كانت كافية ليسقط الجميع غرقى في بركة من الدماء، كما كانت كفيلة أيضًا باقتحام الشرطة للمكان. لم أشعر بركلات رجال الشرطة، لم آبه لهم، كنت فقط أطيل النظر لعيني أبي يصارع الموت محظوظاً حقيقة المال تلك، اختلطت دماءه بدماء جثة أبي التي لم تكد تجف، أراك اكتفيت من النعيم يا أبي، والآن فلتذهب للجحيم. ولئن سألتني عما إذا كنت قد ندمت، بالطبع يا رجل، لم أعد ذلك الفتى المتهدّر من أربعين سنة، بالطبع ما كان ينبغي لي أن أقتل ذلك الشرطي.

كانت هذه كلمات صديقي الجديد ماسوندو، اسمه تايو ماسوندو، شاركنا الزنزانة نفسها لمدة خمس سنوات كان فيها بمنابة أخي الكبير، وكانت له كما كنت للكثير من قومي، ربما يبالغون كثيراً في وصفي بالخلاص، لكنني على استحياء قبلت هذا الوصف. وكما تعلم - أو ربما لا أتمنى لك أن تعلم - فعندما تدخل السجن أول مرة يحاول الكثير هنا مواساتك بأن يقضوا عليك قصصهم، كم سنة قضوا، أي جرائم ارتكبوا، وأشياء من المفترض أن يجعل من سنوات سجنك أهون عليك. وعندما سأله صديقي الجديد - آنذاك - عن سبب وجودي هنا، كان حفاظ عليّ أن أقص عليه كما قصّ عليّ.

اذكر حصة التاريخ تلك عندما أوقفني المعلم سائلا إياي:

- أنت، الفتى الزنجي، نعم أنت قف. ما اسمك.

تحمّل نظرات الجميع مفن حولي، وأجبت بصوت مرتعش

- عبدالله محمد موسى كوناتيه

لا أعلم لماذا ضحك ذلك الفتى الأشقر في أول الفصل، أو لماذا بكت تلك الفتاة هناك، لكنني أذكر رداً معلمي.

- يا إلهي! ستواجهه وقتاً عصبياً يا فتى، لست فقط زنجياً، بل أنت مسلم أيضاً.

وسط ضحكات الجميع حاولت بلع لسانى الذي رفض وانطلق كفرس سقط قضمته لجامها لتنطلق دون رادع

- لقد خلقنى الله زنجياً، إن كان لديك اعتراض على ذلك يمكنك أن تتقىم له بالشكوى، ولا تنس أن ٰرفقاً شوكواك هذه بشكوى آخرى تخض كونه خلائق غبياً.

رأيت زملائى حينذاك يصرخون ضحكاً، بينما وقف الأستاذ ليذيقنى عصاهم، فطفل في العاشرة من عمره جعل منه أضحوكة بين الأطفال، لكنه كان ذلك ممنوعاً في مدرستنا تلك. كانت أياماً اختلطت فيها السعادة بالحزن.

عرفت معنى الحزن لأول مرة عندما مات أبي، كان رجلاً عظيماً، تحمل الكثير حتى أصل لهذا المكان، لا ليس السجن، ستعرف لاحقاً. المهم، هاجرت مع أبي وأمي وشقيقتي عندما كنت في سنّ صغيرة جداً، فالوضع في مالي - وطني - لم يكن جيداً كما قال أبي وقتئذ، فنحن أسرة متوسطة، كان يعمل أبي موظفاً في أحد البنوك، وحصل على فرصة للعمل في فرع لذلك البنك في مدينة مارسيليا، من كان ليرفض ذلك العرض على أي حال؟ وكما كنا في الوطن أصبحنا في المهجـر، أسرة متوسطة الحال من خمسة أفراد، موظف في بنك كبير، ربة منزل وفتاتان في سن الزواج، وطفل كانوا يسمونه النابغـة.

أحببـت القراءة بشكل كبير، ساعدـني في ذلك أبي، قرأتـ الكثـير و الكثـير عن وطني الذي لم أعيش فيه، وقرأتـ عن البلد الجديد - الذي لم أحبـ مناداته بالوطن - وعن تاريخه الملؤـت بدماء البشر، ملايين لا تعد ولا تحصـى هنا وهناك سـألت أبي يومـئـذا عن سـبب وجودـنا في بلد قـتـلتـ

- على حد قوله هو - عشرة أضعاف عدد سكانها الحاليين ، لم أقتنع بإجابته في البداية، رأيتها دبلوماسية إلى حد كبير، « نحن لا نسأل عن سبقونا، لكنّ لنا أن نعيش حياة نرضي بها، ونرضي بها ربنا ». دبلوماسية، أليست كذلك ؟ بالطبع نحن لا نسأل عن سبقونا، لكن بالتأكيد ندفع ذلك في الاعتبار، رحمة الله يا أبي، كنت خطيباً مفوّهاً، أحببـ الخطابة بـ سبـبـكـ، أذكرـ كـيفـ كانـ يـكتـظـ المسـجـدـ كلـ جـمـعـةـ بـ سـبـبـكـ، يـأتـيـ الجـمـيعـ منـ أـقـصـىـ الـبـلـادـ لـأـنـكـ الـوـحـيدـ منـ يـخـطـبـ بـالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ، كـمـ أـشـتـاقـ إـلـيـكـ يـاـ رـجـلـ. أـذـكـرـ يـوـمـ تـخـرـجـيـ فـيـ مـدـرـسـةـ الـحـقـوقـ، كـانـ يـبـكـيـ فـخـوـزـاـ، وـلـمـ لـاـ ؟ـ فـلـقـدـ كـنـتـ الـأـوـلـ عـلـىـ دـفـعـتـيـ، وـكـنـتـ الـأـسـوـدـ الـوـحـيدـ بـيـنـهـمـ، كـانـ ذـلـكـ اـنـتـصـارـاـ -ـ رـبـاـ -ـ لـقـومـيـ وـلـمـنـطـقـتـيـ التـيـ عـشـتـ فـيـهـاـ. كـانـ عـمـريـ حـيـنـذـاكـ إـحـدـيـ وـعـشـرـونـ سـنـةـ، وـلـتـؤـهـ تـرـكـ أـبـيـ عـمـلـهـ -ـ أـوـ أـجـبـرـ عـلـىـ تـرـكـهـ، فـقـدـ رـأـيـ أـنـهـ حـانـ الـوقـتـ لـيـنـشـفـلـ بـشـيـءـ آـخـرـ أـكـثـرـ أـهـمـيـةـ.

لم تكن سنوات عملي الثلاثة - كمحام مدافع عن حقوق المهاجرين - هادئة على الإطلاق، هذا فرنسي أسود متهم في جريمة يعلم الجميع أنه لم يرتكبها، وهذا رجل فصل من العمل بسبب قوانين النزعة الانفصالية الجديدة، وهذه فتاة يبئرها صاحب العمل حتى لا يتم ترحيلها، وهذا وذاك، قائمة لم تنته إلا بانتهاء عملي في المحاماة.

أخبرني أبي بينما تصدع روحه إلى بارئها « لا تنس يا عبدالله أنك عبد الله فقط » كان ذلك يوم الجمعة، وقد مات لتوه شيخ المسجد، لم لمثل شتات نفسي بينما أفر من بين المصليين الحزانى الجالسين في طريقي للمنبر، كان المسجد مكتظاً بشكل لم اعتد عليه، فلقد علم الجميع أن الشيخ محفدا قد مات، وكيف لا يأتون ؟ فقد علمهم كل شيء، قض عليهم ما لم يقصصه عليهم أحد من قبل، رأوا فيه أبا وأخا ومتلا صالحًا صعد المنبر وترك العنان للسانى، لقد مات من جعلك ما أنت عليه اليوم، فاجعل من يوم موته ذكرى لا تنسى. لم يخذلني لسانى، واستحق أبي يومئذ تلك الجنازة التي حضرها الجميع، ليس فقط ذوي

## الأصول غير الفرنسية.

الجمعة تلت الجمعة، والمسجد مكتظ عن آخره، لم اختلف عن أبي إلا في شيء واحد، لم أكن دبلوماسيًا كما كان هو، كنت أتحدث عن القوانين العنصرية الظالمة، والمحاولات الدائمة من الحكومة الفرنسية للتضييق علينا بينما تدعى للعالم أنها بلذ للحريات، لا عجب أن الشرطة كانت تحاوط المسجد أثناء الجمعة، لا شيء إلا تأمين الناس، فقد كان يصل عدد المصليين للمائات بل ربما الآلاف.

أخذت بنصيحة أحد أصدقائي ودخلت مجال السياسة، فأنا في الأساس رجل قانون يحفظ القانون الفرنسي كما تحفظ أنت اسمك، أسسنا حزبًا معتدلاً يقوم في الأساس على العدالة والمساواة بين كل الفرنسيين، مطالبًا بحقوقنا - نحن الفرنسيون من ذوي الأصول غير الفرنسية - في العمل وفي التعليم وفي احترام عقائدها المختلفة في المأكل والملبس وفي أماكن العمل. وفي الانتخابات النيابية كان ذلك نصراً عظيفاً، ما يقرب من ثلث الأصوات كانت من نصيبنا، ليس لأننا حققنا التواجد السياسي وحسب، بل لأنَّ ثلث الأصوات تلك تعني أنَّ الكثير من الفرنسيين البيض أعطونا أصواتهم، مما أزعج اليمين المتطرف كثيراً.

لم نك نحتفل بالنصر حتى اليوم التالي، كان الجميع يشتم رائحة الموت في الأرجاء، غابت الشرطة على غير العادة حين سمعنا وابلًا من الرصاص خارج المسجد. هرع الجميع كما كان متوقعاً، لم أفكِّر - في طرقى للمنزل - إلا في زوجتي الحبل، كانت النيران تلتقط كل شيء، المتاجر، البيوت، السيارات، كل شيء حتى زوجتي. أنت الشرطة أخيراً، لم يعرفوا من الفاعل، بالطبع لم يعرفوا. كانت الجمعة التالية هي سبب وجودي هنا، حين انطلق لسانى كعادته « العين بالعين، والسن بالسن، والأذن بالأذن» هذه المرة كانت الشرطة في مكانها، تم حل الحزب واعتبار الانتخابات السابقة ملغاة، وأغلق المسجد لاعتباره منصة لبث التطرف والعنف. وهأنذا يا رجل، خمسة عشر عاماً بتهمة

الإرهاب.

- يا للمفارقة، أربعون عاماً بين دخول كلّ منا هنا، والسبب في جوهره واحد. لكن أتعلم، أن عليك أن تفرح، فخمسة عشر عاماً ليست بالمدة الطويلة.

كان ذلك ردّ «تايو» عندما أنهيت قصتي، لكنه كان مخطئاً، فأنا لم أقتل، لم اعتد على أحد، أخبرته بذلك وأدهشني رده.

- أنا قتلت شرطياً ورجلًا أبيض واحداً، فعوقبت بالسجن مدى الحياة، وأنت عوقبت بخمس عشرة سنة فقط بينما حاولت قتل أمّة كاملة. هذه صفةٌ رابحة لك إن سألتني.

تعجبت كثيراً من ردّه، لا يبدو لي أبداً أنه شخص أميّ، ربما أكسبته سنوات سجنه الأربعون بعض الحكمة. على كلّ، انتهت فترة تواجدنا في الزنزانة نفسها بعد ثلاث سنوات، أتى نظام حكم جديد للبلاد، وكعادة أيّ نظام جديد، يحاول محو ما سبقه، أصدر البرلمان - الذي ربما كنت لأصبح رئيسه ذات يوم - عفواً شاملًا عن كلّ المساجين في قضايا سياسية أو جنائية بشرط حسن السلوك. و بالطبع، كنت أنا و تايو من المعفوف عليهم. خلال سنواتنا الثلاث هذه فهمت - أو هكذا ظننت - ما يفكّر به تايو، يحلم بتوحيد الأفارقـة تحت راية واحدة، يرى أنّي ساذج لأنّي أخذت طريق السياسة للحصول على حقوق قومي، هو لا يرى إلا حلولاً جذرية تجبر المجتمع الفرنسي على إعطاء السود حقّهم، بطرد فرنسا من منطقة الساحل الإفريقي، تعجبت من كونه يعرف منطقة الساحل، وهي شريط ممتد يشمل خمسة بلدان، تشاد والنiger ومالي وبوركينا فاسو وموريتانيا. بالطبع أعلم بجرائم فرنسا في هذه المنطقة، تماماً كعلمي بجرائمها في الجزائر وإفريقيا الوسطى وبباقي دول إفريقيا، ولكن كيف؟ كيف لهذا الرجل الذي تخطى لتوه الستين من عمره أن يفعل ذلك؟ يطرد فرنسا من إفريقيا! هذا أشبه بطرد الشيطان من الجحيم! يريد هذا المجنون أن يشنّ حرب عصابات ضدّ الجمهورية

الفرنسية - التي ننتمي إليها بالاسم فقط - في منطقة الساحل الإفريقي، وكان ذلك سيكون سهلاً.

- هل جئنت يا رجل؟ تطرد فرنسا من الساحل، ماذا كنت تشرب طيلة هذه السنوات؟

- صدقني شربت مثلما شربت أنت، لن يعيش أبناء قومنا كالبشر هنا ولو انطبقت السماوات على الأرض، ألم تقل أنت قرأت التاريخ كاملاً؟ كيف لقوم كانوا زكوة أمد الدهر أن تقوم لهم قائمة من دون قتال.

- وما ثمن هذا القتال؟ من سيدفع الثمن يا تايو؟

- الجميع. كل شخص استباح دماء قومي، ذلك الرجل الذي استباح أمي الضعيفة، ذلك الشرطي الذي نظر في عين الرجل الذليل منادياً إيه بالزنجي ماسح الأحذية، ماسخ الأحذية ذاته، كل أولئك لابد أن يدفعوا الثمن.

- وماذا عن المشردين؟ ماذا عن الذين يحلمون فقط بالحياة ولا شيء غير الحياة.

- قل هذا لزوجتك يا عبدالله، قل هذا لابنك أو ابنته الذي كنت تنتظر ما رأيك في الحياة التي يحيونها الآن! أخبرني ما رأيك يا كوناتيه في حيوانات الملاليين من الضعفاء أتعلم، ربما لو كنت أتيت هنا مخاطبنا إيه أنت سجنت لأنك قتلت رجلاً أو سرقت أو فعلت هذا أو ذاك - مثل كل أولئك الحثالة هناك - كنت ربما لأظن الوضع تغير بالخارج، لكنك تعلم تماماً لم أنت هنا، لأنك هددت الرجل الفرنسي الأبيض، ذلك الرجل الذي ما رأك إلا عبداً تمرد على سيده وأراد منازعته حكمه، أتدري ماذا سيفعلون؟ سيمعنون قومنا من الحصول على التعليم الذي حصلت أنت عليه، لا يريدون تكرار هذا الخطأ مجدداً، ما أنت إلا عبد في عيونهم، وسيفعلون ما بأيديهم - بكل الطرق المشروعة منها وغير المشروعة - لتبقى عبداً. أراهن أنت كنت الزنجي الوحيد هناك الذي صرخ وقال «يا ليت قومي يعلمون»، وما أن قلت ذلك ماذا فعلوا بك؟ زميت هنا مع

القتلة والحالة أمثالي، أولئك الذين انتزعوا حياة الحشرات الصغيرة  
مهملين رأس الأفعى، هم يريدون ذلك، يريدون منا أن نظل حناله،  
لا جئين، مهاجرين، جهلة، ماسحـي أحذية وبائعـين متـجولـين، لا يريدون  
كونـاتـيهـ، بل يريدون مـاسـونـدوـ، الكـثـيرـ والـكـثـيرـ من مـاسـونـدوـ. أـتـظنـ  
بعدـماـ نـخـرـجـ سـنـعـيـشـ كـالـبـشـرـ؟ـ سـأـخـرـجـ منـ هـذـاـ السـجـنـ لـسـجـنـ أـكـبـرـ،ـ  
الـزنـجـيـ العـجـوزـ قـاتـلـ أـبـيهـ مـاسـحـ الـأـحـذـيـةـ،ـ سـأـجـلـسـ عـلـىـ الـطـرـقـاتـ أـقـصـ  
لـلـصـغـارـ،ـ وـيـحـذـرـهـمـ ذـوـيـهـمـ مـنـ الـحـالـةـ أـمـثـالـيـ،ـ أـمـاـ أـنـتـ!ـ سـيـمـنـحـوكـ  
وـظـيـفـةـ مـرـمـوـقـةـ،ـ سـيـطـعـمـونـكـ كـيـ تـبـلـعـ لـسانـكـ،ـ سـيـسـتـخـدـمـونـكـ كـمـسـكـنـ  
آـلـمـ يـحـقـنـ فـيـ الـبـهـيـمـةـ الـمـرـيـضـةـ قـبـلـ أـنـ قـتـلـ قـتـلـاـ رـحـيفـاـ.

تـذـكـرـتـ حـيـنـهـاـ وـالـدـيـ،ـ وـبـيـنـمـاـ أـرـىـ الـأـلـمـ يـنـفـجـرـ مـنـ عـيـنـيـ مـاسـونـدوـ عـلـىـ  
هـيـئةـ قـطـرـاتـ صـغـيـرـةـ،ـ رـيـثـ عـلـىـ كـتـفـهـ وـقـلـتـ لـهـ بـصـوـتـ يـقاـوـمـ الـبـكـاءـ  
-ـ مـاـ إـنـ نـخـرـجـ مـنـ هـنـاـ سـنـعـوـدـ لـلـأـوـطـانـ يـاـ صـدـيقـيـ،ـ ذـلـكـ عـهـدـ عـلـىـ

\* \* \*

(٨)

### الرعب الأسود

عبد الله كوناتيه...

مـرـ منـ الـوقـتـ الـكـثـيرـ مـذـاكـ الـيـوـمـ،ـ كـانـ ذـلـكـ قـبـلـ أـنـ أـعـودـ مـعـ تـايـوـ كـلـ  
إـلـىـ وـطـنـهـ،ـ لـقـدـ كـانـ الـوـضـعـ مـزـرـئـاـ حـقـاـ،ـ لـمـ يـمـرـ الـكـثـيرـ مـنـ الـوقـتـ فيـ مـالـيـ  
حتـىـ وـصـلـتـنـيـ أـخـبـارـ تـايـوـ فـيـ وـطـنـهـ.

-ـ انـظـرـ مـنـ يـتـصـلـ بـيـ،ـ إـنـهـ ذـلـكـ الـعـجـوزـ!

-ـ اـشـتـقـتـ إـلـيـكـ يـاـ فـتـىـ،ـ كـيـفـ حـالـكـ؟ـ

-ـ الـوـضـعـ هـنـاـ أـسـوـأـ مـاـ تـوـقـعـتـ يـاـ رـجـلـ،ـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـوـلـادـ يـتـنـازـعـونـ  
هـنـاـ،ـ وـكـمـ تـعـلـمـ فـالـشـيـطـانـ دـائـمـاـ مـاـ يـؤـلـبـ أـحـدـهـمـ عـلـىـ الـآـخـرـ.ـ كـيـفـ  
الـوـضـعـ عـنـدـكـ فـيـ الـبـيـتـ؟ـ

كانت تلك شيفرة نتحدث بها عادةً، فبالتأكيد فرنسا تتتجسس على كل كبيرة وصغيرة في غرب إفريقيا، هذا ما يكسبها ميزة استراتيجية بالأساس، لن تحتاج الكثير من الوقت لفهمها، فالأولاد هم الميليشيات المتنازعة، والشيطان؟ ظننتك أذكي من أن تسأل.

- الوضع هنا أكثر هدوءاً، الجميع هنا يسألني عنك بالمناسبة.

- حقاً؟ وماذا أخبرتهم عنِّي؟

- أخبرتهم بصوتك العذب، يريدون منك القدوم حقاً وإحياء حفل صاحب هنا.

- يا رجل بهذه السرعة؟ لم تمر إلا سنة واحدة فقط.

- حسناً هذه واحدة جديدةٌ تضاف إلى الإحدى والستين السابقة من عمري. هيا يا فتى لا تجعلني أكثُر نفسي، يريد الجميع منك القدوم هنا حقاً.

- حسناً سأرثب الأمر، ليس قبل أن أتأكد من الأولاد هنا.

كنت قد أتممت عاماً في وطني الوحيد، لم أتوقع أن يتم احتضاني بهذا الشكل، رحمة من الله عليك يا أبي، كان قد بنى مسجداً قبل أن يهاجر، والآن هو أكبر مساجد المدينة. كان يوم الجمعة وكعادتي كنت أترجل إلى المسجد للقاء الخطبة بالعربية، سرت على خطاك يا أبي، فتحث مدرسة لغة العربية، وعلى مدار العام المنقضي كنت أجتمع كل يوم بعد صلاة الفجر مع حضر من أهل المدينة في المسجد، أعلمهم اللغة العربية - التي حقاً أعتز بها، أقصُّ عليهم تاريخاً غير الذي أجبروا على ابتلاعه، ومن ثمْ أذهب لعملي في الجامعة الوطنية. شعرت بالمسؤولية ملقةً عليٍ كما لم أشعر بها، ولكن أتعلم، الجميع هنا فقراء، فلا ينظر أحدهم للأخر ويتمتم « هو من حصل على الوظيفة بينما أنا لم أحصل عليها لأنني أسود»، فالجميع هنا زنوج، كزنوج فرنسا، جميعهم محرومون من الأمان، من التعليم، وفي أغلب الوقت من الحياة

نفسها. كانت مساواة بحق، حتى وإن كان الجميع مظلوماً، فهو على الجميع، على عكس فرنسا بالطبع.

تجاوزت الصفوف ناظراً في أعين الناس، نفس نظرات أولئك القوم من أربع سنوات، ينظرون بشوق وكأنهم ينتظرون مثيًّا أن أفعل شيئاً، لا أستطيع أن أخذلهم، وأن أخذل عهدي يا أبي. صعدت المنبر، القيث السلام، وعادته انطلق لساني، لكن هذه المرة لم أسيطر عليه.

«أيُّ سلام ذلك الذي ترذلون؟ أيُّ رحمة تلك ترجون؟ أترجون رحمة من الله؟ أتبكون وتتضارعون في كل سجود وركوع قائلين سبحانك ربِّ العظيم، ربنا ولك الحمد، سبحانك ربِّ الأعلى، وتشهدون بألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وتقومون من صلاتكم ليقتل بعضكم بعضاً.... فأيُّ سلام ذلك الذي تนาافقون به الله ورسوله؟ انظروا إلى حالكم، إخوة تفرقوا بعد أن جعلهم الله أمة واحدة، وفيما اختلفوا؟ في خدمة عدوهم الأوحد، ذلك العدو الذي صال وجال وأغفل فيكم السيف وقلب بعضكم على بعض لعشرين بل لمئات السنين فتهلكون ويحيا بدمائكم... أيُّ سلام ذلك الذي ترذلون، لا خير فيكم ما لم يكن الخير بينكم، وما استحق أحدكم الحياة إن لم ير الموت سابقاً، وما مات رجل منكم إلا وقد أحيت دماؤه رجالاً من قومه... لستم ضحايا، بل أنتم قوم إن لم يكن من الإنحاء بُدْ فلنصدق إذا حين نحننا لله، وأقم الصلاة»

\*\*\*

- يا رجل، الوضع هنا أكثر حزناً من مالي.

كانت تلك ردة فعلٍ عندما رأيت أقواماً كالنمل يتجمعون على سيارة المساعدات الغذائية تحت اسم الأمم المتحدة. مرّ يومان فقط على وجودي هنا، حقيقة لم أتخيل الوضع بهذا السوء والكاربة، يومان مرتا كأنهما الدهر، لم أستطع حتى النوم، الحزن يخيّم على المكان.

- لم تَرْ شِيئاً بعْدَ، لَقَدْ حَكِيَ لِي النَّاسُ قَصْصاً لَا تُحْدِثُ هَذَا.
  - أَتَوْقَعُ مَعْظَمُهَا، فَقَدْ قَضَى عَلَيَّ الْكَثِيرُونَ مَا شَابَهُ ذَلِكَ. كَيْفَ حَالُ الْأَوْلَادُ إِذَا؟
  - يَتَشَاجِرُانِ مِنْذُ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ، كُلُّ مِنْهُمَا يَرِيدُ أَنْ يَلْعَبَ وَحْدَهُ فِي الْحَدِيقَةِ، لَكَ أَنْ تَتَخَيلَ أَنَّ هَذَا الْفَتَنَى هُنَاكَ أَرَادَ أَنْ يَقْسِمَ الْحَدِيقَةَ.
  - وَمَاذَا فَعَلَ أَخُوهُ حِينَذَاكَ؟
  - مَاذَا تَظَنُّهُ لِي فَعَلَ؟
- كَانَ هَذَا اخْتِزَالاً لِلْوَضْعِ فِي جَمْهُورِيَّةِ إِفْرِيقِيَا الْوَسْطَى الَّتِي سَقَطَتْ - كَعَادَةُ أَغْلَبِ دُولِ إِفْرِيقِيَا - فِي دَوَامَةٍ لَا تَنْتَهِي مِنَ النَّزَاعَاتِ الْمُسْلَحَةِ تَحْتَ غَطَاءِ الْعَرْقِ أَوِ الدِّينِ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ جَمْهُورِيَّةِ لَوْجُونَ، سَتَعْرِفُ الْقَلِيلَ مِمَّا حَدَثَ هُنَاكَ خَلَالِ الْعَقْدِ الْآخِيرِ.
- يَا رَجُلَ كَيْفَ سِيَجْلِسُ هُؤُلَاءِ الصَّبِيَّةِ عَلَى طَاوُلَةِ الْمَفَوْضَاتِ ذَاتَهَا! يَكْرِهُونَ بَعْضَهُمْ كَمَا تَكْرِهُ أَنْتَ الشَّيْطَانَ.
  - سَنَجْعَلُهُمْ يَكْرِهُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ كَراهِيَّةِ أَحَدِهِمْ لِلآخرِ. فَقَطْ عَلَيْنَا اِثْبَاعُ الْخَطَةِ، إِنَّهَا خَطْتَكَ مِنْذُ الْبَدَائِيَّةِ.
  - لَا تَسْتَعْجِلْنِي حَسَنَاً! أَنَا أَفْعُلُ مَا بُوْسِعَى هُنَاكَ. أَوْلًا، أَرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِذَلِكَ الصَّبِيِّ مِنْ لَوْجُونَ، يَتَحَدَّثُ الْعَرَبِيَّةُ أَلِيَّسْ كَذَلِكَ؟
  - نَعَمْ كَمَا تَعْلَمُ، الْكَثِيرُ مِنْكُمْ يَتَحَدَّثُ الْعَرَبِيَّةَ.
- حَسَنَاً، رَتَبَ لِي مَوْعِدًا مَعْهُ، وَبَعْدَهَا - إِنْ كَتَبَ لِي الْعُمَرُ - مَوْعِدًا آخِرًا مَعَ الصَّبِيِّ الْعَنِيدِ مِنَ الْجَنُوبِ. يَا رَجُلَ أَلِيَّسْ لَدِينَا مَكَانٌ أَكْثَرُ خَصُوصِيَّةً مِنْ هَنَا؟
- سَأَخْذُكَ غَدًا فِي رَحْلَةٍ، لَا تَقْلُقْ.
- وَقَدْ فَعَلَ مَاسُونِدُو - ذَلِكَ الْعَجُوزُ الَّذِي يَكْبُرُنِي بِثَلَاثَيْنِ سَنَةً - بَعْدَ رَحْلَةٍ

استمرت لأربع ساعات في الغابة ترجلنا من السيارة لننزل إلى قبو ممتلئ عن آخره بالعدة والعتاد والمؤمن التي تكفي لعشرات من الجنود. ظننت في البداية أنه خندق أو مركز قيادة سابق لقوات حفظ السلام، لكن ماسوندو أخبرني أنه بناء بنفسه.

- أنت بنيت كل هذا؟ من أين حصلت على المال من الأساس يا رجل؟

- اللغة الفرنسية، الشيء الوحيد الذي اكتسبته من سنواتي الستين تلك، يدفع الناس هنا من أجل تعلم الفرنسية، فالجامعة لا تقبل إلا المتحدثين بها، والبعثات من الأمم المتحدة هنا يحتاجون إلى مתרגمين أيضا، بالإضافة إلى بعض الأعمال الأخرى التي كنت أمارسها أثناء صغرى.

سألته ما زحا

- منسخ الأحذية؟ عجبًا لم أعلم أنها مهنة مربحة لبناء مخبأ عسكري كهذا..... لن أسألك عن مصدر هذه الأسلحة بالطبع، ما رأيتك بالخارج كان كفياً بالإجابة. كم لدينا هنا؟

- عتاد كامل يكفي لما تبي شخص.

- وهل لدينا المائتي شخص؟

- بل ستمائة. مرتبقة من هنا ومن هناك، الفقر سيئ يا فتى.

- وأين هم الآن؟

- يخرجون كل صباح ليصطاد كل منهم من الغابة، رفاهية شراء الأطعمة ليست لديهم، ينفقون أجورهم على أشياء أخرى على الأرجح.

- وبالطبع لم تشتري هذا السلاح، أليس كذلك؟

- ليس تماماً، اشتريت بعضاً منه، غنمته البعض الآخر، ربحته، أيا يكن المسمى، فهو لنا.

- حسناً إذا... ماذا تشربون هنا؟ أحضر لنا شيئاً نشربه بينما نراجع خطتنا.

أثناء احتساء شرابٍ محليٍّ ساخن له مذاق القهوة بجوز الهند ناقشنا الخطة التي أعدّها ماسوندو قبل وصولي. كانت الخطة تقتضي أن نقسم الميليشيات إلى أربعة أقسام، قسمان في الشمال بحدود «لوجون» وقسمان في الجنوب. في الشمال يشن ماسوندو نزاعاً مزيقاً مع «موسى» - قائد قواته الذي عينه ماسوندو على قسم من ميليشياته، محدثاً بعض الضجيج الذي لابد أن يسترعى اهتمام قائد ميليشيات لوجون «عبدالقادر جمال الدين». كان توقيع ماسوندو ان عبدالقادر سيخشى الدخول في نزاعٍ قرب منطقته، لكن بالتأكيد سيرسل بعض الجوايس والمخبرين ليطلاعوه على الأحداث، سيكون هذا هو الوقت الذي أدير فيه العمليات بين قسمي القوات في الجنوب، قوات «جيفرى» وقوات «نور الدين» على حدود مناطق سيطرة القوات التي أطلقت على نفسها في العقود السابقة «الرصاصات». وبالتالي سينحازون بشكلٍ قاطع لقوات «جيفرى». راهن ماسوندو على الطائفية التي دمرت وطنه على مدار العقود الماضية، سيدعم عبدالقادر ميليشيات موسى ضد من يظنهم أعداء له، وستدعم ميليشيا «الرصاصات» جيفرى بشكلٍ قاطع، وهنا يأتي دورى.

حفظت تاريخ إفريقيا، هذه الميليشيات العديدة ارتكبت أشنع الجرائم في حق بعضهم البعض، لجميع النزاعات هنا خط أحاديث يتكرز بشكلٍ عجيب، لا عجب في ذلك، ربما صدفة؟ تذكر يا عبدالله، لا مجال للصدف هنا، هناك تسلسل منطقي يحدث في كل النزاعات المسلحة في القارة المشؤومة هذه، ربما تراني مهووساً بنظرية المؤامرة، وربما يكون للشيطان يدٌ في هذا. أنجولا، التشاد، نيجيريا، مالي، الصومال، موزambique، رواندا، كلها تشارك نفس التسلسل، نزاعٌ عرقيٌ أو دينيٌّ، يدخل طرف مساندًا الواحد ضد الآخر، فينتصر نصراً غير مكتمل، ليصبح معتمداً على بقائه في الأساس على من استقوى بهم على أخيه

من البداية، وتستمر السلسلة حتى يقوم الطرف المساند - ذاته أو غيره - بمساندة ذلك الضعيف الذي تم طحنه لعشرات السنين، فيقوى، فينتقم ممن قتله سابقاً، ويصفح كل الصفح عن ذلك الذي يقلب الأخ على أخيه. سلسلة متكررة لم يعبث بها أحد منذ عقود، وقد قررت ماسوندو أن نعث قليلاً في قوانين هذا العالم.

ستبدأ الاشتباكات المزيفة بعد أيام قليلة وبالتأكيد لا يعلم المقاتلون أنها مزيفة، أمام الجميع يومنا فقط حتى يتمركز الجنود، بالطبع جهز ماسوندو كل شيء، مراكز القيادة، المخابئ، السيارات، مخازن العتاد، كل شيء في الشمال وفي الجنوب، وبالتأكيد كان لابد لي من الاجتماع بالرجال قبل الانطلاق في مهمتنا.

كان جيفرى قواذ، تستطيع توقع ذلك من هيئته، متوسط الطول عريض الكتفين طويل الوجه ذو صوت مائل للنعومة، غائرة عيناه في وجهه وكأنهما تخشيان النظر في الجميع، حليق اللحية، له شعر اعتاد صباغته بالأصفر، كان حاذ الذكاء سريع الملاحظة وذو قدرة لا تُضاهى على الإقناع، لا عجب إذا أنه كان قواذ قبض عليه في فرنسا وقضى سنوات عدّة مع ماسوندو قبل أن أدخل السجن أما موسى فتظرنه شجرة إذا نظرت له من بعيد، فارغ طوله - ربما يتخطى المترین - باسم الوجه بشكل يبعث الطمأنينة في النفوس، كثيف اللحية، حليق الرأس. كان يحلم ذلك الرجل بأن يكون لاعب كرة محترف قبل أن يلقي بحلمه في ورشة أبيه الحداد، كان محترفاً بحق، يصنع الأسلحة النارية البدائية الصنع ويبيعها خلسة إلى أن قبض عليه وحكم بالسجن عشرة أعوام. أما نور الدين، كان صديقي منذ الطفولة، اعتدنا اللعب أمام المنزل في مارسيليا آنذاك، بمثيل عمري، وطول قامتي، بمجرد أن ترى ذقنه الملساء وشعره شديد القصر وانضباطه ثدرك أنه رجل عسكري، تطوع في الجيش الفرنسي في سن صغيرة ليحصل على مكانة اجتماعية ظنَّ أنه يستحقها لكنه ظُردَ بعد ذلك من الخدمة على أي حال.

دنى مني ماسوندو ببرته العسكرية - يدوية الحياكة - السوداء كأولئك القادة العسكريين الذين تراهم عادةً في التلفاز، لم يتبق في رأسه الكثير من الشعر الأسود، وكذلك الحال مع شاربه الكثيف، شكل ذلك الخليط من الشعر الأبيض والأسود والرمادي مع تجاعيد وجهه وقامته المشوقة وصوته الأخش وحاجبيه المقطّعين باستمرار وببرته العسكرية السوداء رمزاً يجبرك على تبجيله، لا تستطيع المقاومة عندما تنظر في عيني هذا الرجل، تقوم من مقامك وكأنَّ تجاعيد وجهه رسمت شكل إشارة «قف!». قمت من مقعدي بينما يخبرني ماسوندو بأنَّ الرجال الثلاثة ينتظرون الاجتماع الأخير في غرفة القيادة.

- فليذكر كل منكم ماضيه....

كانت تلك أولى كلماتي مع الرجال حول طاولة الاجتماعات في الغرفة... ممزراً ناظريًّا في أعینهم تابعث :

- فليذكر كل منكم من كان في السابق، فليذكر كل منكم أحباءه وأصدقاءه الذين ماتوا من أجل أن يحيا هو. إن كنت تظنُّ نفسك تقاتل لأجل قومك فقد جانبك جزءٌ من الصواب، لا تنس أئك تقاتل من أجل نفسك بالأساس، أنت تقاتل لتشترذ كرامتك، إنسانيتك، حریتك التي سلبها منك الفرنسيون. أنت لا تحمل همَّ أمَّةٍ بكاملها، يكفيك فقط أن تحمل همَّ نفسك، زوجتك، ابنك أو أهلك وأبيك، فلتتحمل معاناتهم، اجعلها نصب عينيك.

توجهت ناحية موسى مخرجاً صورةً على هاتفي

- أترى هذا المسدس؟ نعم، هل تذكره؟ ربما لا، لكنَّي أذكر ذلك كما لو كان بالأمس. كانت تلك قضيتي الأولى عندما عملت بالمحاماة، عندما كنت أدفع بالقانون عن قومنا، هل تعلم يا موسى عَنْ كنت أترافق في هذه القضية؟ عن طفل في الثالثة عشر من العمر كان عائداً من المدرسة بينما أصابته طلقة طائشة في شجار بين الحشائط على المخدرات في الأزقة الضيقة في ستراسبورغ. وبالتأكيد لا تعلم أنَّ هذا

الصبي كان الابن الوحيد لوالديه قبل أن يُقتل؟.... انظر في عيني وقل لي، من ... صنع ... هذا ... المسدس؟ تلك صنيعة يدك، أنت لست هنا لتحرر قومك ممن ظلموهم، بل لتحرر نفسك أولاً من دم هذا الصبي. لا يخن أحد منكم أنه المخلص، ولا حتى أنا، نحن نحمل خطایانا حتى تدفن معنا.... تذكر نظرة والدك يا ماسوندو عندما أطلقت عليه النار في قلبك، قل لي ماذا كانت تقول دموعه... هل كان يعتذر؟ هل كان يقول آسف يا بنى أئك ولدت في أرض تكرة وجودك، آسف يا بنى لأن إخوتك ماتوا قبل أن تراهم عيناك، آسف يا بنى أئك ولدت في أرض تكرة وجودك، آسف يا بنى لأن إخوتك ماتوا قبل أن تراهم عيناك، آسف يا بنى لأن جعلتك تمسح الأحذية بينما ترى الأولاد يلعبون، آسف يا بنى لأن أهلك....

- يكفي ذلك يا عبدالله....

- كلام، لا يجب أن تنسى نظرته، لا يجب أن يجعل منه الشيطان، يجب أن تنتقم لوالدك من الجميع، ومن نفسك أولاً. وأنت، جيفري، ذلك القواد الزنجي الذي يبيع بنات قومه من أجل النقود، لا تنس ذلك، لا تنس كم طفلاً أجهض لأن فتيات قومك كنْ أفقر من أن يتجنبن الحمل سفاحاً، أنت تحمل أوزارهم فوق رأسك حتى يوم خلاصك..... ولست بخيركم، أحمل معي أوزاري، أحمل معي زوجتي التي زهدت الحياة من أجل أن تحيا معي، أحمل ولدي الذي لم أكن أعرف جنسه بعد، أحمل عهداً عاهدت به أبي على فراش موته، أحمل خلفاً أن يحيا ذلك الزنجي حياةً كريمةً في أوطانه، ألا يتخطى الصحراء والبحر ويلعق التراب ويأكل الحشائش هرباً من وطنه..... كلَّ منا يحمل عهده، وليمت كلَّ منا عندما يوفى بعهده.

\*\*\*

مرّ عام على ذلك اليوم، من كان ليتوقع أن نتمكن من توحيد الميليشيات المتنازعة في إفريقيا الوسطى تحت راية واحدة يحملها

ماسوندو وموسى؟ راية الرعب الأسود. كلا لم تكن تلك هي طريقي  
المفضله لتسخير الأمور هنا في مالي.

- سيدى الرئيس، هناك وفد دبلوماسي رفيع المستوى يريد مقابلتك  
على الفور.

كما أخبرتك، أصبحت رئيس الوزراء بين ليلة وضحاها.

- احجزي لهم موعداً هذا الأسبوع.

- سيدى الرئيس، انهم من الولايات المتحدة!

- حسناً أجعلهم ينتظرون قليلاً ريثما أخرج لهم... تباً للأمريكان،  
يظنون أنفسهم فوق البشر.

أنهيت ما كنت مشغولاً فيه بسرعة وخرجت لمقابلة هذا الوفد المزعوم،  
بالتأكيد لدى فكرة عن سبب قدومهم.

- سيادة الرئيس، بادئ الكلام إننا في الولايات المتحدة نقدر كثيراً  
جهودكم المبذولة في مكافحة النزاعات المسلحة والنزاعات الانفصالية  
في منطقة الساحل. لقد قمت حقاً بعمل ممتاز لا يسعنا إلا أن نعجب به  
ونشكركم عليه.

- لم نفعل هذا إلا من أجل توجيد شعبنا وباقي شعوب المنطقة، ليس  
طمعاً في مساعدة من أحد أو انتظار لرسائل وكلمات شكر، لكننا نقدر  
مشاعركم الطيبة حقاً.

- بالطبع سيادة الرئيس فمن أولويات القيادة السياسية في الولايات  
المتحدة هو ضمان استقرار منطقة الساحل كما تعلم، لهذا وجب علينا  
تنبيهكم أن الجمهورية الفرنسية تجهز رداً عسكرياً شاملًا خلال الأسابيع  
القليله القادمة، ومن واجبنا أيضًا كقوة عالمية محبة للسلام لا نتدخل  
أو ننحاز لأي طرف على حساب الطرف الآخر.

- وكيف لدولنا المتواضعه إقتصادياً وعسكرياً أن تتصدى إذا لهجوم

كهذا؟ لا نطلب الانحياز منكم بالتأكيد، ولكن نطلب المنطق في تحديد الأولويات، إن عادت فرنسا إلى الساحل الإفريقي مرة أخرى فلن يكون في ذلك منفعة لأي أحد، سيخسرون المال والجند، وسنخسر نحن آلاف الصالحين، كما ستخسرون انتم أيضاً. تفهمين مقصدي بالطبع.

- بالتأكيد فخامة الرئيس، كنا نتوقع هذا الرد ونحن سعداء حقاً به. إحداث توازن فقط، كما أخبرتك فستسعى الولايات المتحدة بكل قوة أن تمنع فرنسا من تنفيذ هذه الضربة في مجلس الأمن.

- يبدو أنني لم أحسن التعبير عن كلماتي، سيدتي. ما أقوله بوضوح شديد أن أي هجوم من فرنسا سيؤجج مشاعر الأفارقة في كل أنحاء الغرب، بدءاً من الولايات المتحدة، وهذا ما لا يريده أحد، خاصة بعد اقتراب تولي السيد «ميلن» حكم بلادكم، تفهمين تماماً ما أقصده. سيخبرني أحد رجالـي أن سفينـة شـحن أمـريكـية محـملـة بـأـسـلـحـةـ وـذـخـيرـةـ تـقـدرـ بـمـليـارـاتـ الدـولـارـاتـ تـحـركـتـ لـتـؤـهاـ مـتـجـهـةـ لـقـوـاعـدـكـمـ فـيـ الصـوـمـالـ. يـبـدوـ أـنـ هـذـهـ السـفـينـةـ لـنـ تـصـلـ لـقـوـاعـدـكـمـ، تـفـهمـينـ مـاـ أـقـصـدـ سـيـدـتـيـ؟

حركـتـ رـأـسـهـاـ فـيـ حـيـرـةـ وـطـلـبـتـ مـنـيـ المـتـابـعـةـ ...

- إليك القصة، سيهجم بعض العناصر من الميليشيات - التي لا يحبها أحد كما تعلمـين - على هذه الشـحـنةـ، سيـقـبـضـ الـجـيـشـ الـوطـنـيـ لـجـمـهـورـيـةـ مـالـيـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـأـوـغـادـ وـسـنـعـدـكـمـ بـتـسـلـيمـكـمـ أـسـلـاحـتـكـمـ فـيـماـ بـعـدـ. وـسـنـكـرـ هـذـهـ اللـعـبـةـ عـدـةـ مـرـازـ خـلـالـ الـفـتـرـةـ الـقـادـمـةـ.

- يبدو لي كلامـاـ يـتـسـمـ بـالـعـقـلـانـيـةـ سـيـدـ كـوـنـاتـيـهـ، لـكـنـ الثـمـنـ سـيـكـونـ باـهـظـاـ حـقـاـ. سـأـبـلـغـ الـقـيـادـةـ السـيـاسـيـةـ وـأـطـلـعـ سـيـادـتـكـمـ عـلـىـ الـمـسـتـجـدـاتـ خـلـالـ الـأـيـامـ الـقـلـيلـةـ الـقـادـمـةـ.

كان ذلك أـهمـ ماـ قـيلـ أـثـنـاءـ هـذـاـ اللـقـاءـ شـدـيدـ الـأـهـمـيـةـ بـالـطـبـيعـ فـهـمـتـ الـآنـ مـقـصـديـ، لـكـنـهاـ لـمـ تـحسـنـ تـقـدـيرـ الثـمـنـ، فـنـحـنـ نـدـفـعـ الثـمـنـ مـنـذـ قـرـونـ وـالـآنـ نـسـتـرـدـ الـجـزـءـ الـيـسـيرـ مـنـ حـقـوقـنـاـ. مـنـذـ مـتـىـ حـقـاـ وـالـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ تـهـمـ لـأـمـرـ الـمـنـطـقـةـ؟ رـبـماـ تـصـفـيـةـ حـسـابـاتـ معـ فـرـنـسـاـ، لـاـ يـهـمـ، مـاـ

يهم الان هو أننا معرضون للهجوم خلال أسبوع، ولل الحق كنت اتوقع هذا الرد من فرنسا، فما عانته خلال العام الماضي لم يكن بالأمر الهين، يكاد تواجدها في منطقة الساحل أن يكون منعدما بعد بزوج نجم الربع الأسود.

أرسلت نور الدين برسالة إلى ماسوندو مفادها أن الحفل القادم سيكون في باريس. ليعود نور الدين بعدها بأيام حاملا إلى الرد بأنه يعرف متعهدا للحفلات في إيطاليا أخبره عن إقامة حدث عالمي كبير في باريس بعد أسبوعين، وسنقيم الحفل هناك.

تذكر أنك حملت رواية عندما يعزف الشيطان حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هناظهر لك .

رأيت، كانت الخطة بتلك البساطة، يذهب أحد رجال الربع الأسود إلى فرنسا، يجهز الحفل الصاخب قرب القاعة التي سيقام فيها الحدث المنشود، وسيكون الانفجار مدوياً بالشكل الذي يخرج فرنسا أمام العالم أجمع. هل برأيك ستستكث فرنسا على تلك الإهانة؟ بالطبع لا، كانت ستتحاول غزو بلادنا على كل حال، فلا بد لنا إذا من ضربة استباقية. ومن يدري، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. تناولت الهاتف طالباً من نور الدين القدوم فوراً إلى مكتبي، فجاء على الفور، وبعد تبادل التحية أسمعته الخطة كاملة.

- اسمع إذا يا صديقي وانقل هذا جيداً لماسوندو. سيصطف كل الرجال قبيل السواحل الصومالية بكيلومترات قليلة في انتظار شحنة الأسلحة تلك لعدة أيام، وستهجمون دون قتل رجل واحد مهما كلف الأمر... لا تنظر لي هكذا واسمع ما أقول! على الأغلب ستقع الشحنة في أيديكم دون إحداث ضوضاء أو جلبة، ستفرغ الشحنة وتنقل بـزا إلى رجالنا في إفريقيا الوسطى والتشاد. وسيتكرر هذا الأمر حتى تتوقف

سفن الشحن تلك عن الظهور، حسنا؟

بهذه البساطة، ستتسرب الأخبار عاجلاً أم آجلاً أن شحنات الأسلحة الأمريكية تعرضت لهجوم مسلح على السواحل الصومالية، ربما سيريك هذا فرنسا قليلاً، لا يهم، هذا إجراء دفاعي فقط.

\*\*\*

مر أسبوع وقد وصلت أول شحنة بالفعل إلى المخازن في التشاد وإفريقيا الوسطى، الأمر التالي - والذي كان أسهل قليلاً نظراً لأنني أَغْدَهُ منذ فترة - هو الهجوم الفرنسي الشامل. كيف برأيك ستجهز فرنسا ضربة جوية؟ بالتأكيد باستخدام قواعدها العسكرية في إفريقيا، انظر معي في الخريطة، قاعدة في جيبوتي تم تدميرها، قاعدة أخرى في التشاد سُويت بالرمال، قاعدة في إفريقيا الوسطى، قاعدة في النيجر وأخرى في بوركينا فاسو ذُمتا تماماً، وأخيراً هنا في مالي، كلاماً أخبرتك أنني لا أحب تسيير الأمور هكذا، أخرجت هذه القاعدة باتفاقية تسليم قادة الميليشيات المسلحة. فكما تعلم، الفرنسيس جبناء، يهجمون فقط بالطائرات لا بالرجال. لديهم الكثير من الطائرات، ولدي ماسوندو الآن نصف مليون رجل متفرقين في منطقة الساحل الإفريقي. لكنهم اجتمعوا على شيء واحد فقط، كراهية الجمهورية الفرنسية البيضاء.

أراك متعجباً كيف سارت الأمور خلال العام الفائت. أخبرتك أن ماسوندو وحد كل الميليشيات المتنازعه في وطنه، لا أعلم كيف نجح بهذه السرعة ولكن لكل شخص طريقته. بمجرد أن استلمت رئاسة الوزراء ناقشت مع الرئيس - والذي يقدرني بشدة حقاً - عدة قرارات هامة، كان أهمها اتفاقية تسليم قادة الميليشيات التي أخبرتك عنها منذ قليل، واجهت صعوبات شديدة لإقناع الفرنسيس بقدرتنا على تفكيك هذه الجماعات المنظمة، استغرق الأمر عدة جلسات عرفية مع كبار هذه الجماعات، حتى قرر جميعهم دون استثناء تسليم سلاحهم والخضوع للمحاكمة المدنية العادلة، وكما تعلم أنا رجل قانون يا رجل.

اذكر ذلك اليوم عندما اجتمعت بالقادة وفعل لساني ما فعل، واجهتهم بالحقيقة التي يهرب منها الكثيرون، إن كانوا يريدون حقا تحرير الوطن من الاحتلال الفرنسي الناعم هذا فلا بد لهم بخل الجماعات المسلحة وتسليم أنفسهم فقط، بينما سيذهب الرجال الآخرون إلى ماسوندو. وافق الجميع على ذلك، وعاهدتهم بعدم تسليم أحدهم إلى الفرنسيين. ولن أن تخيل فرحة فرنسا بهذه المعايدة، بل لك أيضا أن تخيل، لقد رحلت فرنسا تاركة خلفها عشرات العتاد والقواعد المجهزة بكل شيء، بما في ذلك طائرات ومدرعات وناقلات نفط وما إلى ذلك.

كانت صفقة رابحة بكل المقاييس، فكما نعلم ثعاني فرنسا من تقلبات سياسية، وكلما مات أحد منهم عندنا تجد إعلامهم يصرخ مطالبا بالانسحاب من إفريقيا، وكل مرة يصوت البرلمان على الانسحاب من دولة تلو الأخرى، وكلما انسحب الفرنسيون تركوا خلفهم ما لا يترك، ويختلفون هناك رجال الرعب الأسود. أما الفوز العظيم فكان تسبق دول المنطقة لتوقيع اتفاقيات دفاع مشترك وتبادل معلومات.

مرأسبوع آخر وكنا قد تسلمنا ثلاثة شحنات جديدة ونقلت جميعها إلى قواعدنا المنتشرة في المنطقة، وغدا هو اليوم المنشود، مؤتمر طبي عالمي للكشف عن دواء سيغير شكل العالم، سيغير هذا المؤتمر شكل العالم بلا شك، اليك ما سيحدث. سيحدث انفجار هائل قرب مكان انعقاد هذا المؤتمر، سُحرج فرنسا امام العالم وستتهم الرعب الأسود بتنظيم هذه العملية. ستهرع بعد ذلك إلى مجلس الأمن مطالبة الموافقة على غزو إفريقيا الوسطى حيث يتواجد ماسوندو- وإن صدق الأميركيون - فلن يدعم أحد قرار الغزو حتى تتجلّى الغطرسة الفرنسية في أغرب صورها محاولة غزو إفريقيا الوسطى ومالي.

سأترك العنوان لمخيالتك، ماذا سيحدث عندما تعلن فرنسا الحرب على مالي؟ الحمقى، لقد اجتمع الجميع هنا على كراهيتكم، ملايين الموتى في أنحاء القارة سيجعلون الأحياء يأخذون بالثار.

(٩)

## إيطاليا

قابلت مادلين لتوئي - الصحفية تلك التي وظفها صبري في شبكته الإخبارية - امرأة حادة الذكاء في عقدها الرابع، ما لفت انتباхи حقا أن تلك المرأة تبدو محطمـة تماماً، تدرك ذلك بمجرد أن تنظر في عينيها لترى العدسات السوداء التي تغطي بها المقلتين، وشعرها مزيف اللون الأشقر. لم أهتم بالسبب كثيراً، فهذا ليس شأني على كل حال، بل إن ما أثار اهتمامي أن هذه المرأة لم تصدق أن رحلة إيطاليا ستكون ذات جدوى.

- اسمعني يا سيدى، لماذا لم يخطر ببالكم ولو للحظة أن هذا فخ؟

- صبـرى، هناك من يناديك بـسـيدـى.

- مهلا، كيف يكون فخاً؟

- يا رجل، تقصد أن ديميتري ربما يكون قد مات وقتل في أي مكان قبل أن يضع أحدهم تلك الشريحة في صدره.

- بالضبط، ربما قتلـه أحـدـهـمـ وـوـضـعـ الشـرـيـحـةـ بـأـمـاـكـنـ لـاـتـمـتـ بـصـلـةـ إـلـىـ مـوـسـكـوـ كـيـ يـبعـدـكـمـ عـنـ الـحـقـيقـةـ.

- كلا يا مادلين، لا أظن ذلك، أنا أثق بأصدقائي في المـخـابـراتـ الروسـيةـ، لو كان الأمر كذلك لأطلعـونـيـ عـلـيـهـ. ثم إنـيـ أـرـسـلـتـ رـجـالـيـ لإـيـطـالـياـ وـقـدـ حـدـدـواـ مـوـقـعـ مـارـكـوـ هـنـاكـ بـشـمـالـ إـيـطـالـياـ.

- سـيدـ صـبـرىـ أـرـجـوكـ فـكـرـ فـيـ الـأـمـرـ بـقـلـيلـ مـنـ الـمـنـطـقـ لـقـدـ ئـزـعـتـ الشـرـيـحـةـ مـنـ عـنـقـهـ وـوـضـعـتـ شـرـيـحـةـ أـخـرـىـ فـيـ صـدـرـهـ، وـكـانـ أـحـدـهـمـ أـخـذـ المـعـلـومـاتـ الصـحـيـحـةـ وـوـضـعـ شـرـيـحـةـ أـخـرـىـ فـقـطـ لـلـتـشـتـتـيـتـ أـوـ لـلـإـيـقـاعـ بـمـارـكـوـ هـذـاـ.

- صـبـرىـ، أـنـاـ أـجـدـ كـلـامـهـاـ مـنـطـقـيـاـ إـلـىـ حـدـ كـبـيرـ.

- إذا تقصد أن أحدهم كان هنا في موسكو، وذهب بعدها إلى باريس ثم انطلق جنوبا إلى إيطاليا، ليسجل الإشارات على الشريحة، ثم وضعها بصدر ديمتري قبل أن يلقى به في جدول المياه عند المزرعة القديمة في موسكو.

- لو كانت الشريحة تسجل التوقيت، لكان الأمر أسهل كثيرا.

- يا فتى، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. سواء كان ذلك فخ أو لا، فلا بد أن ماركو لديه معلومات نحن بحاجة لها.

كان كلامها منطقي كي أصدقك القول، لكن من عساه يأخذ هذا الطريق، موسكو باريس إيطاليا؟ إما ديميتري أو ماركو أو طرف ثالث يتلاعب بالجميع. على كل فرحتنا لإيطاليا لن تطول، على الأقل نعلم وجهتنا جيدا فقد حددت جولي娅 الموضع بدقة، بلدة صغيرة في شمال إيطاليا تسمى «كونيا». الأزمة هنا تكمن في كيفية الذهاب، إما إلى تورينو ثم في رحلة برية إلى المكان المنشود، أو إلى ليون في فرنسا ثم رحلة طويلة للغاية حتى الجنوب. خياران عصييان حقا، فإيطاليا تعاني من تفشي هائل للباراتوكس وفقدت قرابة الخمسة ملايين شخص بسبب هذا الوباء، وفرنسا تحت الاحتلال وكل يوم يقتل الآلاف فيها ما رأيك أنت؟ أي طريق كنت لتأخذ؟ أم أنك لن تذهب إلى إيطاليا مقتنعا بما قالته مادلين .

بالتأكيد لم ننتظر إجابتكم، ذهب ثلاثة بطايرة خاصة إلى تورينو ومن هناك اتجهنا برحلة برية في سيارة قديمة إلى تلك البلدة الصغيرة. لا يتوقع أحد منا رؤية أناس كثر، فهذه البلدة خاوية على عروشها بسبب الباراتوكس. ربما يضحك ذلك رأي مادلين أنها ليست هدفنا، كيف إذا صارت إيطاليا عامة وهذه المدينة خاصة منبعاً يتدفق منه الوباء لكل أنحاء العالم. ليست إيطاليا وحدها، بل الولايات المتحدة أيضا وهذا يثير الشكوك بشكل كبير حول العصابات الإيطالية في الولايات المتحدة، لا أدرى يا رجل لكن ما يهم هو أن ماركو لديه ما يكفي من

المعلومات.

بينما اتشبت بعجلة القيادة محاولاً الرؤية خلال الثلوج المتتساقطة أرادت مادلين الجالسة بجواري أن تكسر الصمت بصوت آخر غير شخير صبّري.

- أخبرني إذا، هل أنت مصاب بالباراتوكس؟

- ۱۲ -

- كيف انتقل لك؟ يقال أنه لا ينتقل إلا بالاتصال المباشر، هل من زوحفتك؟

- لا أعلم، ربما لم أخذ احتياطاتي في المعامل بالشكل المطلوب، لا يهم.  
ماذا عنك؟

- أنا أبضا.

- لم تأخذ احتياطاتك في المعلم؟

- كلا يا خفيف الظل، يل يسيب زوجي السابق.

- آسف لسماع هذا، البقاء لله كما تعلمين.

- لم يُفْتَ، لقد هَجَرَهُ.

سابق.

تعالت ضحكاتها حتى دمعت عيناها موقظة صيرى من شياته الطويل.

- يا للعجب أصحتنا أصدقاء بسرعة بالفعل !

- دائمًا ما تستيقظ في غير أوقاتك يا صبرى.

- أنا متعب يا صديقي، أريد النوم حقا.

- ما بالك أصبحت تنام أكثر مما تستيقظ كفرس النهر!

اعتدل صبري من مرقده في المقعد الخلفي وتناول دواءه ثم استدار  
موجهاً سؤاله لمادلين.

- كيف حال والدك الآن؟

- ليس على ما يرام، لكنّي مازلت مؤمنة بأنّي سأنقذه.

- ماذا حلّ بوالدك؟ سألتها متوقعاً إجابتها

- الباراتوكس، لقد دمر كل شيء، لم يتبقّ لي إلا أبي، ولن أعود إلا  
ومعي المصل.

- أحاول ذلك لي خمسة سنوات، أتمنى أن يكون حظك أفضل من  
حظي، على كلّ أرسلي إلى نتيجة تحليل إصابتك رجاءً كي تراجعها  
جوليما في المعامل.

- لقد تزوجت حقاً؟

أخرجت هاتفي متصلة بجوليما لتظهر على الشاشة

- جوليما، رجاءً راجعي هذا الفحص بدقة وارفعيه على الحاسوب  
المركزي.

- لا تتعجبني يا فتاة، أنت لم تر شيئاً بعد.

قال ذلك صبري بينما يجهز حاله للنوم مرة أخرى. بعد ساعات قليلة  
حاولت كسر الصمت بسؤال كان يقفز بين منحيات عقلي.

- مادلين، عذراً! تبدين لي بحال جيدة، كيف تدعين أنك مصابة؟

- لست «جيدة» كما تظن، بالتأكيد أفضل من الكثير من المصابين  
لكنّي أحاول المقاومة قبل أن أموت على كل حال.

سكت لبرهة منتظراً إياها مبادلتي السؤال ذاته، لكنها لم تفعل، بل  
نظرت لي في المرأة الأمامية بحيث التقت عينانا

- تبدو بحال مزرية حقا.

- ماذا؟ هل أخبرك صبري أنى ذلك الفتى الوسيم مستقيم الظهر  
مفتول العضلات رقيق المشاعر مرهف الحس الذي تتهاوى عليه  
الفتيات بالجامعة؟ أسف لقد خاب ظنك..... هيا استيقظ يا صبري لقد  
قاربنا على الوصول.

ترجلنا من السيارة محاولين تحريك أقدامنا خلال أكوام الثلوج  
المتراءكة، يظهر الموضع الذي حددته جوليما أننا في المكان الصحيح،  
لكن لا شيء، بضعة منازل صغيرة الحجم هنا وهناك مقطعة أسقفها  
بغطاء ثلجي كثيف، وكان القرية هجرت عن بكرة أبيها.

- قلت لكم أن هذا فخ!

اقرب مني صبري طالبا النظر في الخريطة قبل أن يدلوا بدلوه

- لو أن الموضع المحدد هنا على الخريطة هو الموضع الصحيح، فإما أن  
هذا فخ كما تقول مادلين، أو....

- أن المكان تحت الأرض.

- بالضبط يا فتى، وبالنظر إلى المنازل هنا، فربما يكون مسعانا تحت  
هذا المنزل على اليسار.

- لو تبين أن هذا فخ حقا فلن أسامحكما على تضييع وقتي.

وسط همماتها ومحاولات صبري كبح سعاله - الذي ازداد بشكل  
ملحوظ - كنا نحرك أقدامنا بين الثلوج باتجاه هذا المنزل الصغير، منزل  
ريفي صغير من طابق واحد مغطى بالثلوج. دنونا من الباب ولم ينتظر  
صبري حتى أعطى الباب ركلة ظننته أنني سمعت صراخا حينها. لا  
شيء، ثلاثة قديمة مفتوحة بها بعض الأطعمة الفاسدة، طاولة إلى  
يسار الباب عليها كومة من الجرائد مثبتة بحجر حتى لا تتطاير، تلفاز  
قديم وأريكة مهترئة من أمامه. بالطبع كان الجميع يبحث عن باب مؤدى

للطابق السفلي - إن وجد. كان الظلام يخيم على المكان خاصة في الغرفة التي دخلتها للتو. راودني هذا الشعور الغريب باللا منطقية، فالغرفة فارغة تماما إلا من هذا السرير في آخر الغرفة.

### - صبري حرك معي هذا السرير

وقد وجدناه تماماً أسفل السرير، بباب معدني ما إن ترفعه للأعلى حتى يتدنى منه سلم معدني كذلك. لم انتظر أحداً منهم، فبمجرد أن انزلق السلم إلى الأسفل حتى سمعنا صرخة مدوية. جرت القشعريرة في جسدي لكنني لم أتوان عن النزول للأسفل. خطوة تلي الخطوة، وصرخات الرجل تتعالى بالأسفل دون أن أميز كلمة واحدة لا يقل طول هذا السلم عن عشرة أمتار حتى الآن ولا أشعر ب نهايته تقترب حتى، فما زالت صرخات الرجل بالأسفل بعيدة ولا أكاد أرى أصابعه من الظلام، لو أن قضيباً واحداً من قضبان هذا السلم اختفى من تحت قدمي لسقطت إلى حيث لا أعلم. ليس هذا طابقاً سفلياً بل مخباً حروب ربما.

أخرجت مادلين هاتفها محاولة إضاءة ذلك الظلام بينما ما تزال في الأعلى، ويشكل صوت أقدامي وأقدام صبري مع سعاله المتتصاعد وصرخات الرجل التي تقترب في الأسفل صوتاً يقتل العقول ويزيداد الأمر سوءاً بهذه الرائحة النتنية التي تخترق أنفي. ها هي! لمست قدمي الأرض أخيراً. حركتها يميناً ويساراً بينما ما زالت الأخرى على السلم، نعم لقد وصلت للأسفل. أخرجت هاتفي وبدأت ألوح به بيطئ باتجاه مصدر الصراخ ويقاد قلبي يثقب صدري من الخوف، حتى رأيت انعكاس الضوء في عينيه قبل أن يشيخ بنظره وتعالى صرخاته.

لم استطع النطق أو الحراك، أطلت النظر وكان عيناي أجبرتا على الثبات أمام هذا المسخ المقيد بالأغلال من جميع أطرافه في قضيبين معدنيين متبنان في الحائط، برداء مهترئ، طويل الشعر أشعث اللحية وكأنه حبس هنا لقرون، نحيل البنية حتى كادت عظامه تمزق جلده المهترئ، تفوح منه رائحة الموتى حين يتركوا في العراء.

ساعد ضوء هاتفي صبري في معرفة أنه وصل للقاع، كانت صدمته أقل قليلاً مني قبل أن يطلب من مادلين البقاء بالأعلى حتى لا ترى هذا الرجل، لكنها كانت قد وصلت بالفعل.

- يا للهول! ماذا حل بهذا الرجل.

- ربما ما حل بصلاح، يا فتى لا تقترب!

كنت أقترب من هذا الرجل المكبل بالأصفاد في الحاجط مسلطاً الضوء على جسده لأرى آثار الحقن في عنقه.

- هذا الرجل لم يمكث هنا إلا قليلاً، ربما أسبوع أو على الأكثر عشرة أيام. تبدو آثار الحقن في رقبته حديثة. فلنبحث عن أي شيء في هذا المكان.

كان من الصعب علينا حقاً أن نجد شيئاً في هذا المكان نظراً للظلمة، وجدت مادلين مفتاحاً للكهرباء لكنه لم يكن يعمل. بينما سرت بمحاذاة الحاجط حتى وجدت حوض مياه ممتلئ بالإبر تفوح منه رائحة نتنة، وجدت صبري يلتقط شيئاً بجوار طاولة مقلوبة على أحد جوانبها

- صبري هل وجدت شيئاً؟

ناولني كاميلا لكنها كانت فارغة على أي حال، استمررنا بالبحث في الجوانب قبل أن يتوجه صبري مباشرةً لذلك الرجل الذي توقفت صرخاته، لم ألحظ تلك الشاشة على الجدار ذاته من قبل، لا يهم.

- بربك يا صبري ماذا ستفعل!

بدأ في البحث في ملابس الرجل - بينما لم يتوقف عن السعال للحظة حتى شعر أنه أمسك شيئاً بجيبيه الخلفي. أخرج صبري ما وجد وهم مبتعداً عنه قبل أن يتقيأ الرجل في وجهه ليسقط على الأرض.

هرعت وما دلين إليه مسرعين

- بربك يا صبري ماذا تفعل قلت لك ألا تقترب منه.

ظل يسعل حتى شعرنا أن قلبه سيخرج من بين فجوات صدره ليبدأ بالتنقيؤ على الأرض.

- فقط أهدا وسنحاول الخروج به من هنا .

- انت لا تفهمين، صبري يعاني من مشاكل صحية بالأساس، لو أصيّب بالباراتوكس سيموت على الفور. تبا كيف سأخرج بك من هنا يا صبري! أسقط صبري من يديه ميدالية مفاتيح والمحفظة اللتان أخذهما من جيب هذا الرجل.

- أبق بجانبه.

ركضت لآخر الغرفة عند الحوض لأنناول إحدى الإبر، لابد من قتل هذا الرجل قتلا رحيمـا. عدت إلى الرجل المكبل بالحائط، كان قد هـدا كثـيرا و تدلـت رأسـه على صدرـه، أنا آسف يا رـجل. وضعـت الإـبرـة على عنـقه مـحاـولاً غـرسـها بـلـطـفـ، قبل أن يـرـفع رـأسـه نـاظـراً في عـيـنـيـ.

- انت تـشـبهـ أخـاكـ كـثـيرـاـ.

ثم تـدلـت رأسـه على صدرـه مـرـةـ آخـرىـ. هل قالـ ماـ سـمعـتـ؟ قالـها بالـانـجـليـزـيةـ، بالـتـأـكـيدـ لمـ اـفـقـدـ عـقـلـيـ بـعـدـ، هذاـ الرـجـلـ قالـ ليـ أـشـبـهـ مـلـاـكـ كـثـيرـاـ!!

أـخـرـجـتـ المـفـاتـيـحـ منـ جـيـبيـ وـفـكـتـ الـأـصـفـادـ عنـ الرـجـلـ ذـاهـبـاـ بـهـمـ إـلـىـ صـبـريـ مـكـبـلاـ يـدـيـهـ.

- ماـذاـ تـفـعـلـ؟

- سـتـفـهـمـيـنـ، صـبـريـ! هلـ تـسـتـطـعـ الـوـقـوفـ؟ هـيـاـ سـنـصـعـدـ لـلـأـعـلـىـ يـاـ رـجـلـ اـصـمـدـ.... مـاـدـلـيـنـ سـأـصـعـدـ درـجـتـيـنـ منـ السـلـمـ وـمـنـ بـعـدـهاـ تـكـبـلـيـ يـدـيـهـ بـقـدـمـيـ، سـأـحـاـوـلـ سـجـبـهـ مـنـ الـأـعـلـىـ يـيـنـماـ تـدـفـعـيـنـهـ مـنـ الـأـسـفـ..... لـاـ تـنـظـرـيـ إـلـىـ هـكـذـاـ أـعـلـمـ أـنـهـ يـيـنـ كـلـيـنـاـ مـعـاـ، هـيـاـ يـاـ صـبـريـ تـمـاسـكـ هـذـهـ

المرة فقط من اجلني.

ارتفعت عدة درجات حتى بدت مادلين بتثبيت صبري بقدمي رافعة  
إياه للأعلى بينما أحاول سحب قدمي درجة تلي الأخرى. هيا يا صبري  
ساعدني كما تفعل دوما، ساعدني لأجلك هذه المرة لا لأجلني. أشعر  
بحسدي يتمزق إلى نصفين، لن تموت يا صبري، ليس الآن، ليس بعد.

- ارفعي بكل ما أوتيت من قوة، اصعدي لقد انتصف طريقنا  
للأعلى..... ماذا بك أيها العجوز لا تستطيع رفع قدميك! اجمع شتان  
نفسك أيها الضعيف، هل ستستسلم الآن! هل ستموت بهذه الطريقة!  
أرجوك يا صبري لا أقو على الصراخ، لم تخذلني ذات مرة فلا تجعلها  
المرة الأولى. ها هو! خف الوزن كثيرا، لا بد أن صبري بدأ بامساك  
درجات السلم.

- هيا يا رجل لقد أوشكتنا... لا تفلتني يا مادلين! لو سقطنا من هذا  
الارتفاع فهي نهايتنا بالتأكيد.

بمجرد أن صعدنا الدرجة الأخيرة سقط ثلاثتنا على الأرض، أشعر  
وكان ساقين قد انفصلتا عن جسدي، ارتحى صبري على الأرض لكنه ما  
زال يتنفس، حاولت التقاط أنفاسي وبكلمات تقاد تفهم طلبت من  
مادلين مساعدتي في نقله للسيارة.

- بئني.... أحبك يا بئني

\*\*\*

(١٠)

المصل

كان من الصعب على والدي أن يهتما بي في وجود ملاك، أتفهم ذلك  
الآن على عكس سنوات طفولتي، كيف لوالدين مصريين - أو ربما أي  
والدين من أي ثقافة في العالم الواسع هذا - أن يعيروا طفلهما العادي

أي اهتمام في وجود ابنهما العبقري العظيم الذي حصل على الشهادة الاعدادية في سن التاسعة؟ بالطبع لا يمكنهما ذلك. ولا ألومنهما، على العكس أنا أتفهم ذلك ولربما كنت لأفعل الشيء ذاته، فتفضيل الآباء لابن على الآخر يأتي دائئرا دون أن يلاحظ أحدهم ذلك. يمكنك أن تتذكر كيف فرح والدك عندما نجح أخيوك الصغير في شهادته الثانوية بنسبة نجاح لا تتعدي نسبة الخصم على الملابس في فترات العروض الشتوية، تتذكر فرحة والدتك عندما تخرج شقيقك في كلية علوم ورقائق بعدهما ظل يرسب فيها لمدة عشر سنوات، يمكنك كذلك أن تذكر كيف كان يتصدق والدك على شقيقتك الصغرى بالأموال بينما يتركك أنت بورقة نقدية لا تست夠ي فنجانا من القهوة.

كذلك كان الوضع بالنسبة إلي، طفل عادي تماما مصاب بانحراف في عينيه اليسرى يتعرض للسخرية من زملائه باستمرار قبل أن ينقد شقيقه حياته. أرأيت؟ أجرى لي جراحة في العين بينما كان في الثالثة والعشرين من العمر فقط، وأجرؤ على طلب الاهتمام حقا! بالتأكيد لا، ربما لم أكن جديزا بالاهتمام في أعين الكثيرين إلا ثلاثتهم، ليلي، سلمى، وصبري. لا يربطهم شيء إلا ذلك. رأيت ليلي تنتزع حياتها بأم عيني، وما تسلمى منتظرة زواجنا، والآن يا صبري أواري جثتك بالتراب.

- هل كان قريبا منك إلى هذا الحد؟  
كان هذا صوت مادلين الناعم يحاول أن يخترق الصمت الذي دام لدقائق.

- ليس تماما، كان كأي من أقربائي، ربما أحببته أكثر من البقية لأنه أمضى معى من الوقت كثيره في الأعوام الخمسة الماضية.

بل كان أخي الكبير، وأبي الذي لم أحظ به من قبل، كان صديقي الصدوق وحاملي سري، عمودي الفقري الذي تحطم لتوه. ويبدو أنها لم تصدقني، حتى الكذب أصبحت فاشلا فيه.

- هل ثمانع إن أخبرتني القليل عنه؟ ربما أكتب عنه قصة حالما أصل إلى لندن مرة أخرى.

نظرت إلى شاهد قبره بينما أضع ما تبقى من ميداليته المفضولة في جيبي وأتبعت ذلك بشهيق طويل لأسرد لها.

هو ابن عمي الكبير، يكبرني بعشرين سنة كاملة، كما تعلمين كان ضابطا سابقا في إحدى الجهات الرفيعة.

- سيدتي، هل أنت بخير؟

- اخرج وأغلق الباب من خلفك، لا أريد مقابلة أحد.

- أمرك سيدتي.

كان ذلك صوت صبري الخشن راقدا على سريره لا يقوى على الحركة - إلا الميسير منها - ممسكا بتقرير وفاة زوجته في وحدة العناية المركزية، وما أنأغلق طبينه الخاص الباب حتى تحولت أحواله الصوتية الخشنة إلى أوتار حزينة، وانهمر سيل من الدمع على وجنتيه المجدعتين، صارحا بكل ما تبقى فيه من قوة قبل أن يتناول تقرير حالته الصحية بالطبع، ما كان ليسمو الأمراً أكثر من ذلك، لم يفقد صبري في تلك الحادثة زوجته فقط، بل قدرته على الإنجاب أيضاً لقد أحب زوجته حقاً، كان يراها في كل شيء، بل كان يلعن نفسه كل يوم ألف مرة، كان يتمنى أن يرى نفسه ميتاً على أن يقرأ تقرير وفاتها بعينيه.

لم يستطع حينها أن يكمل عمله في تلك الجهة الأمنية الرفيعة، فاستقال رافعاً الحرج عن الجميع، وبمكافأة نهاية الخدمة وعلاقاته العديدة بدأ شبكته الإخبارية الجديدة، أذكر ذلك لأنّه جاءني يوم حصولي على الشهادة الثانوية. سألني حينذاك عن رأيي في الاسم الذي اختاره لتلك الشبكة الإخبارية. «ضياء» كان ذلك الاسم الذي استقرَ عليه، لكنه حقاً لم يكن اسمًا جيداً، يبدو لي كاسم مدرب للغة العربية في منتصف العمر يضرب تلاميذه بالعصا الغليظة محفلاً إيّاهم نتاج

ضعف شخصيته وقلة حيلته.

- ما رأيك في اسم «نون» أظنه بنفس المعنى ولكنه أفضل.

- ولكن يا فتى أنت تعلم، كنت أريد أن أسماه ابنـي «ضياء» وأريد تخلـيد اسـمه بهذه الطـرـيقـة.

- كنت تـريـد مـعـاقـبـة ابنـك حـثـا بـهـذـا الـاسـمـ، يا رـجـلـ لو كـنـت زـرـقـتـ بـهـ لـكـنـ أـقـنـعـتـكـ باـسـمـ نـورـ.

- أـظـنـنـيـ كـنـتـ سـاقـتـنـعـ بـرـأـيـكـ أـيـضاـ، حـسـنـاـ، فـلـتـكـنـ «شـبـكـةـ نـورـ الإـخـبـارـيـةـ». كـيـفـ تـبـدوـ لـكـ هـكـذاـ؟ـ هـلـ سـتـنـجـحـ؟ـ

- أـظـنـهـاـ سـتـبـلـيـ بـلـاءـ حـسـنـاـ ما دـمـتـ لـنـ تـظـهـرـ بـوـجـهـكـ أوـ صـوـتـكـ فـيـ أـيـ شـيـءـ فـيـهـاـ.

كان ذلك حديثنا على طاولة الغداء في أحد المطاعم الفاخرة، كانت عائلتي وقتها في الولايات المتحدة ليشهدوا حصول ملاك على درجة علمية رفيعة لا يجرؤ حتى على ذكر اسمها، لا ألومنهم، لكنني شررت لوجود صبرى إلى جانبي حينها.

كان عاطفياً بشكل كبير، أذكر يوم أن التقيت بسلمي للمرة الأولى وأخبرته عنها، أذكر كيف اغزورقت عيناه بالدموع بينما يفركهما خوفاً من أن أراه باكتئابه. بالطبع تذكر كيف التقى بزوجته.

- مبارك لك يا فتى، أتصفح بأن تتزوجا بسرعة ما دمتما تحبان بعضكم البعض، فالعمر ليس طويلاً بما يكفي لتضيع حياة أحدكم دون الآخر.

- انظر لهذا العجوز، يريد مني الزواج بينما مازلت أرسـبـ فيـ الـكـلـيـةـ كلـ عـامـ.

- وماذا في ذلك؟ ألا ترى نفسك قادرًا على أن تتولى شؤون نفسك؟

- صبرى، أنا أعلم أنه ليس ذنبك أنك ولدت بهذا الأنف الضخم، ولكن

رجاءً أبقيه بعيداً عن شؤوني.

كان صبري كما كانت ليلي وكما كانت سلمى، وكما ذهبوا ذهب هو.

بعد أن دفنا كليةما في الباحة الخلفية لأحد المنازل - والتي كانت مغطاة من الأعلى فلم تكن الثلوج على الأرض - دخلنا إلى السيارة حيث أخرجت محفظة الرجل لأتفقدها.

- انظري، إنه ماركو، أحد أعضاء فريق ملاك البحثي.

- من إذا فعل به هذا؟

- هذا ما نحاول معرفته.

أثناء البحث في محفظته وجدت بطاقة تخزين، ربما كانت في تلك الكاميرا في المخبأ؟ سنرى. أدخلتها في حاسوبي محمول ولكن لم يكن الأمر سهلا، كانت مقفلة بكلمة سر.

- ألا يمكنك اختراقها؟

- هل أبدو لك ذلك الرجل العقري الذي يخترق الحواسيب ويفك الشيفرات

جريدة باراتوكس، لا. ماركو روسو، كلا. لا أجد اسمًا لأحد من أطفاله أو ربما زوجته. مهلا! أخرجت هاتفي طالبا جوليما في المعمل

- جوليما، ما هي ترجمة ملاك بالإيطالية؟

- أنجيلا

بالفعل! أراد ذلك الرجل أن أحصل على هذه البطاقة. فتحت البطاقة لأجد ملفات ذات تسلسل تاريخي بداخل كل منها مقاطع فيديو لا تحصى.

- هل كانوا يسجلون التجارب على البشر؟

- بالطبع، انظري لكل هذه المقاطع.

كنت سأتعجب لو لم أكن فعلت الأمر ذاته، الفارق أنني لم أفعل ذلك أبداً بالأصحاء. فتحت الملف الذي يحمل التاريخ الأحدث - والذي يحمل تاريخ الأسبوع الماضي - لأجد مقطعاً واحداً فقط،

«مرحباً، أنا الباحث الإيطالي ماركو روسي، أعمل كعضو باحث في فريق دولي مكون من عدة باحثين بعلم الأمراض والطفيليات، طالما تشاهد هذا المقطع فأرجو أن تكون وجدتني ميتاً. على مدار السنوات الخمس المنقضية عملت لحساب شركة دولية متعددة الجنسيات تهدف لتطوير سلاح بيولوجي. وبينما أسجل هذا المقطع توصل أحد الزملاء إلى مصل مضاد لما يسمى الباراتوكس. أجرينا اختبارات على آلاف السكان المحليين في المخابئ تحت المنازل هنا في «كونيا». أتحمل مسؤوليتي كاملة، كما أتحمل مسؤولية اعترافاتي بهذه طالباً العفو والغفران من الجميع... ستجدون إحداثيات المقر الرئيسي للشركة ومكان تواجد المصل وكل المعلومات المرفقة بذات الملف. وداعاً»

- مهلاً أنت لا تصدق هذا الرجل!

- ولم لا؟

- لا يبدو لي صادقاً على الإطلاق!

- هناك سبيل واحد للتأكد من مدى صدقه.

- لا تقل أننا سنفحض كل المنازل.

- سيكفي منزل واحد أو اثنان ثم سنبلغ السلطات. هيا بنا.

خرجنا من السيارة وكان الليل قد أقترب من الانتصاف، وولجنا في أقرب منزل حتى لا نضطر للسير كثيراً. كان مدخل المخبأ تماماً كما كان السابق، أسفل السرير في الغرفة الداخلية، وعلى عكس سابقه، فلم نسمع صراخاً هذه المرة. أخذنا السلم المعدني للأسفل لنجد الظلام

ذاته، الرائحة ذاتها، وكومة من الجثث. بجوار الطاولة كنت الكاميرا على الأرض، تناولتها لأجد بداخلها البطاقة الخاصة بها. كررنا البحث في عدة منازل ومن ثم عدنا إلى السيارة. أدخلت البطاقات الاتي جمعتهن من الكاميرات لأجد جميعها فارغة تماما.

- بالتأكيد نسخ كل البطاقات على بطاقة واحدة كي يجمع كل شيء معا. وكأنه يريد الصفح والغفران.

- هؤني عليك، الناس يقترفون الأخطاء دائمًا، وعلى الأقل نستحق أن نطمع في العفو والمغفرة.

- حسنا يا سocrates، ماذا الآن؟ هل سنذهب إلى مقر الشركة المزعومة؟

- انتظري ... جولي، أظهرى لي تلك الإحداثيات على الخريطة ...

- مارسيليا!

- أصبحت قضية دولية الآن، لابد أنك سعيدة بهذا السبق الصحفي.

رمتنى بنظرة باردة قبل أن تخرج من السيارة لتجري اتصال ما. يا إلهي، مارسيليا. اقتربنا كثيراً من الحقيقة هذه المرة.

- أخبرتهم في القناة بوفاة صبرى وبتلك الشركة، سيسقون من حكومة مالي من أجل دخولنا مارسيليا وتوفير الحماية لنا.

- لماذا هجرتني زوجك؟

- هيا من فضلك، لا نريد أن يطلع الصباح علينا إلا ونحن هناك.

عدنا بالسيارة إلى تورينو حيث سنستقل الطائرة الخاصة إلى مطار مارسيليا. لم يستغرق الطريق إلا ساعة واحدة حتى كنا في مطار مارسيليا. سلقنا المعلومات لجهاز الشرطة الذي طلب منها الالتزام بأماكننا في صالة الانتظار حتى يقبض على الموجودين في مقر الشركة. وبمجرد أن طلبت كوبا من القهوة قفزت مادلين في وجهي

- ظننتك أقلعت عن شرب القهوة. أخبرني صبري - رحمة الله - أنك تشرب وتأكل القهوة فقط.

- الأمر ليس كذلك، أنا لاأشعر بأي طعم إلا القهوة.

استيقظت من النوم على ضوضاء اجتاحت ساحة الانتظار، يحاول الجميع التقاط الصور والصياح باسئلة لم أفسرها من تداخل الأصوات. جاء أحد رجال الشرطة شديد الضخامة من ذوي الرتب العالية وأصطحبنا في سيارة خاصة إلى مقر الشركة.

- اعتذر عن عدم تقديم نفسي، يمكنك مناداتي بموسى.

- لا عليك يا سيدى، هل وجدتم أحداً في الشركة؟

- القليل منهم فقط، البقية فارون هنا وهناك منذ أيام.

- وماذا وجدتم في الشركة؟

- أتفهم قلقك سيدى، لم يبعث أحد بأي شيء، أضمن لك ذلك.

لم تستمر الرحلة طويلاً، فسرعان ما وصلنا إلى مبنى الشركة، كان عظيماً بحق، ربما يتكون من خمسة عشر طابقاً أو أكثر. لم يستغرق الكثير من الوقت قبل أن أتيع المعلومات التي قالها ماركو عن المصل، ولا تأخذ بعض الاحتياطات فقد أخذت كل أنبوب زجاجي في ذلك المبنى، لم يكونوا كثراً بالمناسبة. والآن استطيع أخذ رحلة من مارسيليا إلى الوطن حيث سأنعم بالقليل من الراحة.

عدت أخيراً من تلك الرحلة العصيبة، لا وقت لدى للراحة فعلي النزول للمعمل لفحص العينات التي جئنا بها من مارسيليا، نعم هي ذاتها التي وجدتها في ذلك المخزن في إيطاليا. أخذت حماماً بارداً لاستعيد الشعور بحواسِي مزةً أخرى بينما أعاد ذلك الآلة الغبيَّ القهوة التي لا أذكر أنني شربتها أبداً. أشرت للتلفاز لأرى ما الجديد، هل مات مئات الآلاف اليوم مزةً أخرى بسبب ذلك الباراتوكس اللعين أم ماذا؟

أغلقت الخط بينما أخذ المصعد للمعمل، طلبت من جوليـا أن تجهـز لي الغرفة رـيـثـما أرتـدي ملابـس العـمل. بـغضـون دقـائق كـنتـ أمام السـرـير ذاتـه، شـكـرا لـكـ أيـها السـرـير البـطـلـ، لـقد تـحـقـلتـ الـكـثـيرـ منـ أجلـ الـبـشـرـيـةـ حـقـاـ، لاـ أـذـكـرـ عـدـدـ الـأـرـوـاحـ الـتـيـ صـعـدـتـ إـلـىـ السـمـاءـ مـنـ فـوـقـكـ يـاـ صـدـيقـيـ الـخـمـولـ، كـمـ أـحـسـدـكـ حـقـاـ كـوـنـكـ جـمـاـذـ لـاـ شـعـرـ بـالـحـزـنـ أـوـ الـأـسـىـ أـوـ الـنـدـمـ، أـوـ جـمـيـعـهـمـ. نـظـرـتـ لـذـلـكـ الـقـرـدـ الـمـسـكـينـ، كـانـ فـاـقـداـ لـوـعـيـهـ، حـقـنـتـهـ جـوليـاـ يـوـمـ أـمـسـ بـجـرـعـةـ مـنـ الـبـارـاـتـوـكـسـ، لـابـدـ أـنـهـ يـفـقـدـ جـزـءـاـ مـنـ حـوـاسـهـ الـآنـ.

أخذـتـ تـلـكـ القـارـوـرـةـ الـزـجاـجـيـةـ الصـغـيـرـةـ وـذـهـبـتـ بـهـاـعـنـدـ جـهـازـ الـفـحـصـ، بـضـعـ قـطـرـاتـ كـانـتـ كـفـيـلـةـ كـيـ أـرـاـهـاـ عـلـىـ الشـاشـةـ أـمـامـيـ. يـبـدوـ لـيـ التـرـكـيبـ ذـاـتـهـ لـلـبـارـاـتـوـكـسـ! رـيـثـماـ تـكـوـنـ تـلـكـ هـيـ النـسـخـةـ الـخـامـلـةـ مـنـ الـبـارـاـتـوـكـسـ الـتـيـ حدـثـنـيـ عـنـهـ مـلـاـكـ مـنـ قـبـلـ، أـذـكـرـ أـنـنـيـ رـأـيـتـهـاـ مـنـ قـبـلـ لـكـنـيـ لـأـذـكـرـ تـحـدـيـداـ أـيـنـ، سـيـعـرـفـ الـجـهـازـ ذـلـكـ حـيـنـنـاـ يـقـارـنـ النـتـائـجـ بـكـلـ النـتـائـجـ السـابـقـةـ الـمـسـجـلـةـ عـلـيـهـ، بـالـتـأـكـيدـ سـيـأـخـذـ الـأـمـرـ وـقـئـاـ فـلـقـدـ أـجـرـىـ هـذـاـ الـجـهـازـ الـحـاسـوبـ الـبـطـلـ الـأـلـافـ الـفـحـوصـ لـالـأـلـافـ الـعـيـنـاتـ. لـوـ كـانـتـ هـيـ بـالـفـعـلـ فـعـلـ أـقـلـ صـارـ لـدـيـنـاـ أـمـلـ فـيـ أـنـ نـجـدـ عـلاـجـاـ لـهـذـاـ الـكـابـوـسـ. حـقـنـتـ ذـلـكـ الـمـسـكـينـ بـهـذـهـ الـجـرـعـةـ وـاستـلـقـيـتـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ خـارـجـ الـغـرـفـةـ رـيـثـماـ يـنـتـهـيـ الـجـهـازـ مـنـ مـقـارـنـةـ النـتـائـجـ الـنـهـائـيـةـ.

استـيقـظـتـ بـعـدـ سـوـيـعـاتـ قـلـيلـةـ عـلـىـ صـوتـ تـنبـيـهـ الـحـاسـوبـ، لـقـدـ آنـهـ ذـلـكـ المـغـوارـ فـحـصـ النـتـائـجـ وـمـقـارـنـتهاـ بـكـلـ النـتـائـجـ السـابـقـةـ لـدـيـهـ. طـلـبـتـ مـنـ جـوليـاـ فـنـجـانـاـ مـنـ الـقـهـوةـ وـأـظـهـرـتـ النـتـائـجـ عـلـىـ إـحـدـىـ الشـاشـاتـ أـمـامـيـ. بـالـطـبـعـ كـنـتـ وـاثـقـاـ مـنـ ذـاـكـرـتـيـ، هـنـاكـ حـالـتـانـ مـتـطـابـقـتـانـ بـالـفـعـلـ، أحـدـهـماـ تـطـابـقـ كـلـيـ وـالـآـخـرـ جـزـئـيـ. نـظـرـتـ فـيـ اـسـمـ الـحـالـتـيـنـ لـأـرـىـ أـنـ تـلـكـ الـمـتـطـابـقـةـ جـزـئـيـاـ كـانـتـ عـيـنـةـ مـنـ دـمـيـ أـنـاـ. وـالـآـخـرـيـ كـانـتـ لـمـادـلـيـنـ، تـطـابـقـ كـلـيـ.

هلـ كـانـتـ مـادـلـيـنـ ثـخـيـ بـدـاـخـلـهـاـ الـمـصـلـ كـلـ هـذـاـ الـوقـتـ؟ هلـ تـعـلـمـ مـنـ الـأـسـاسـ أـمـ تـجـهـلـ ذـلـكـ مـثـلـيـ تـمـامـاـ؟ بلـ لـمـاـذـاـ يـتوـاجـدـ بـدـاـخـلـهـاـ

الباراتوكس الخامل دون النشط، بل كيف وصل إليها من الأساس! وماذا عن التشابه الجزئي ذلك، أنا لا أفهم شيئاً، هل كنت مصاباً طيلة هذه السنوات بالباراتوكس المعدل أم بالقاتل؟ هل كان العلاج بداخلي طيلة هذه الفترة! أنا حقاً لا أفهم شيئاً. دخلت مسرعاً لأتفحص القرد لأجد حالي قد بدأت بالفعل بالتحسن، انتظمت أنفاسه وإشاراته العصبية كذلك، هذا مستحيل.

أخذت عينةً من دمه لافحصها خلال دقائق، بالتأكيد هذا القرد بداخله الآن نسختان من الباراتوكس، هذه هي النسخة المعدلة التي طورها ملوك. قارنت نتيجة عينة القرد الجديدة بخاستي، وكما توقعت! تطابق كامل، طيلة هذه السنوات وجسيدي يحمل المرض وعلاجه. طلبت من جولي استنساخ الجرعة الباقيَة، وحقن كل من في المعامل بها من الحيوانات والجرذان، وإرسال كل النتائج إلى على الفور.

\*\*\*

هبطت طائرتي بمطار ماسوندو بباريس عاصمة الشمال، في بدايات الربيع حيث تتفتح الأزهار معلنة بدء حياة جديدة، كذلك كان سبب مجبي هنا. ركبت السيارة التي ستأخذني إلى القاعة ذاتها حيث كنت يا أخي. لم آبه بعدد الحاضرين، ولا بمكبرات الصوت، ولا بكاميرات الإعلام، فقط كنت أرى ملوك حين وقفوا هنا واضعاً نقطة البداية، وأمل يا أخي أن تراني واضعاً كلمة النهاية لما بدأته أنت. اليوم سيحصل الجميع على المصطلح بالمجان، سيحييا الجميع سواء، ولি�حترق في الجحيم كل من أضاع حيوانات هؤلاء. اليوم وبعد أن خسر كل منا من خسر، فقد كل منا أحبةً وأشقاء وأزواج، أمل أن تكون حيواناتنا قد أعطت معنى لتضحيات الآخرين.

لا أدرك حقاً هل كان هذا ما قلته أمام الكاميرات أم ما كنت أريد قوله، المهم أن الجميع سيحصل على حق الحياة.

\*\*\*

(١١)

## نيكولاس

- عليك أن تستعيد عرشك يابني، عليك أن تسترد مجد أجدادك، لقد قطعنا شوطاً كبيراً حتى الآن، فلا تدع عزيمتك تهداً!
- هل أنهيت قهوتك بالفعل؟ من يراكم الآن لا يصدق أنك أتممت عامك الخمسين ليلة أمس!
- ضاحكة .... خمسون عاماً يا لك من معسول اللسان.
- صدقيني لا تبدين أكبر من ذلك، ربما عاماً أو عامين.
- أنهت فنجانها واعتدلت قائلة - أخبرني ما الجديد، هل حصلت على ترقية؟
- ليس تماماً، لكنني بدأت أحصد بعض الثمارأخيراً.  
أومات برأسها في إشارة لجعلى استمر..
- أوكل المدير إلي قضية مميزة بشكل كبير، شيء ما يتعلق بعلاج جديد ربما أو بمرض جديد، شيء من هذا القبيل.
- ظهر عليها الاهتمام بينما كانت تلعق أسنانها من أثر القهوة.
- هذا ما أعرفه حتى الآن، لا أحد يعرف أكثر من ذلك، لا هنا ولا حتى في الغرب، ويفترض أن فريق من سيمسك بزمام هذه القضية، ربما ستكون ذات أهمية .... أنهيت فنجاني وتابعث... هل كان هناك مثل هذه الأشياء في أيامك؟
- أكثر من ذلك بكثير يا فتى، كانوا يستخدمون هذه الأشياء لإبادة مدن كاملة، أذكر في طفولتي أن عالماً ألمانياً اخترع غازاً ساماً، كان الطيارون الألمان يلقونه فوق قرى و مدن كاملة في فرنسا و بلجيكا. عجبًا أما زلت تذكرين !

- أرأيت؟ و تجرؤ على مجامعتي بسبعين عاماً يا «نيكي»
- حسنا ربما كنت أكبر من ذلك قليلا، لكن أئن لك بهذه الذاكرة يا فتاة.
- لا أعلم، إرادة أبينا لكي يستعيد جذك الكبير مجده.
- حسنا سأكتفي بهذا الآن لأنّي وعدت إليكسي باصطحابه من المدرسة إلى الحديقة، أراك عندما أعود.
- لا تنس تقبيل ذلك الشقي، فهو يحب "ستيني" كثيرا.... تماماً مثلك يا «نيكي».

\*\*\*

- بالتأكيد يا سيدي، قبل منتصف الليل تماماً سأطلعك على ما جد، بالتأكيد.... نعم .... ثق بي يا سيدي ... شكرًا لك. فلنتابع حديثنا يا نيكى، ماذا كنت تقول؟
- إنك لن تردد على مكالمات العمل هذه بينما نتجول في الحديقة؟ لا بأس لا عليك.
- هون عليك أيها القوي، أبوك رجل مهم و أنت ستكبر حتى تصبح مثله تماماً.
- كلا لا أريد أن أكون ضابطا، فهي مهنة خطيرة، أريد أن أكون لاعب كرة قدم .. أركل الكرة هكذا و هكذا و يحبني الجميع و يهتمون لأمرى و يلتقطون معى صورا كلما ذهبت هنا أو هناك.
- أتلغلم، هناك وظيفة ستجعلك محبوبنا أكثر من لاعب كرة القدم.

ائسرت عيناه سائلا

- حقا! ما هي؟

- أميرا، ثم ملكا، تحكم هذه البلاد كافة، يعشقك الجميع يحملون صورتك في أعراسهم و حفلاتهم. بل سيحبك أيضا لاعبو كرة القدم و

- يقبلون يُمناك و يتبرّكوا بك قبل مباراتنا في نهائى كأس العالم القادم.
- أنت تعلم أننا لن نصعد للنهائى حتى، لقد فزنا على إسبانيا بالصدفة.
- ربما ليس هذا الكأس، ربما مستقبلاً حينما تكبر و تصبح ملكاً لهذه البلاد.
- و كأننا نستضيف كأس العالم كل أسبوع. أنت تظنيني صغيراً أليس كذلك !
- ألق نظرة، هل ترى هذه الفتاة الجميلة في الصورة؟ أتدري من هذه؟
- إيه هذه «ستيني» في صغرها، ظننتك سترينى ماريا.
- يا شقي.... هل تدري كم عمر جذتك ؟
- مليون سنة ربما، لا أدرى فهي عجوزة جداً.
- مهلاً ألم تدرس الحساب! أنت في الصف الثالث يا فتى! أريدك أن تحسب عمرها منذ تاريخ تلك الصورة.
- إيه حسابات أخرى، لا أفهم هذا الخط، لن أحسبها.
- لا تحاول حتى، سأقرأها لك، ها هي "انستازيا نيكلافيا ١٩١٧" ، و لأسهل الأمر عليك، كانت بضعف عمرك في هذه الصورة .
- أظن أنها ، مائة وسبعة عشر؟
- أحسنت، أتدري ، ما زالت تعاملني كطفل صغير، هل يعني ذلك أنني صغير؟ كلا، لكنها تعاملني هكذا لأنها تحبني كثيراً، مثلما أفعل معك أيها القوي.
- كان يمكنك أن تقول هذه الجملة دون الحاجة لكل تلك الحسابات...
- لا تكف عن التذمر، تماماً كأمك. كيف هي بالمناسبة؟
- بخير، ألن تعودا للعيش معاً؟

- يوماً ما أيها القوي، أفك امرأة قوية، لكنها ليست قوية كوالدك بالطبع.
- على الأقل لا يرث هاتفها كلما اصطحبتنى من المدرسة.
- عدنا للتذمر مرة أخرى.
- أتدري، هي مهمة أيضاً، و تعمل عملاً شاقاً مثلك تماماً، يوم أمس قالت لي أنها ربحت قضية مهمة.
- حقاً! هذا رائع.
- كلا ليس رائعاً! فهذا يعني أنني سأجلس وحدي طيلة الشهر، فهي تعود للمنزل في ساعة متأخرة.
- أعدك يا فتى أني سأعود قريباً، ولن تبقى وحدك، سنتناوب على الجلوس معك.
- و كأنني أصبحت عبيداً، أتعلم، عندما أصبح ملكاً سأمنعكم من الخروج من المنزل
- انظروا من غير رأيه هنا! أمرك مطاع يا جلالة الملك ...
- ها هو الهاتف يرث مرة أخرى، سأمنعكم أيضاً من استخدامه
- مساء الخير اليكساندرا، كلا لا تقلقى سأعيده بعد قليل... حسناً إلى اللقاء. يبدو أن أمك اشتاقت إليك الآن يا فتى، هيا بنا سنعيدك للمنزل.
- لماذا لا تستيقظ إلى إلا عندما تصطحبني! هذا مزعج.
- إنها أمك يا فتى، تهدب... هيا انهض.

\*\*\*

فلترى ما لدينا، "رسلان ميلينكوف" مزارع من ضواحي موسكو، مات نتيجة مرض جديد تفشى في سائر جسده، وقد تبين في تقرير الطب

الشرعى أنه أصيّب بطفيلي يعيش بالنباتات ،، بلا بلا بلا كلام لا فائدة له ...

- مساء الخير سيدى .... بالتأكيد قرأتة كاملا، سأذهب باكرا للطب الشرعى لمباشرة التحقيق هناك... ولم لا؟ أليس من المفترض أن نباشر التحقيق من هناك؟.... حسناً سأوافيك في المكتب غداً...

ربما كنت محقاً يا فتى، فهذه مهنة مملة و شاقة ..

- نيكى!

يا رباه، ألم تتم بالفعل! هذه المرأة حقاً معجزة هذا القرن .. نعم عزيزتي، أما زلت متيقظة!

- كيف حال أليكسى؟

- بخير، يتذمّر فقط كوني لا أشاركه الكثير من الوقت. أهذا ما يبقيك متيقظة؟

- وماذا عن هيلجا؟

- منشغلة بقضايا توكل إليها مؤخراً.

- يا صغيري، أما آن للكما أن تعودا؟ هذا الصبي بحاجة لأسرة، أنت أكثر من يعلم ذلك.

- وكيف ذلك؟ هل سأخبرها؟ بالطبع لا. كيف سأعيش مع امرأة تشاطرنى السرير دون مشاطرتى السرير!

- كما عشت مائة عام حاملة هذا السرير معي.

- لا تبدئي هذا الآن.

- بل سأفعل يا نيكolas، ستحمل هذا السرير وحدك حتى تتحقق مصيري.

- أنا لم أختار هذا المصير حتى
- و أنا لم أختار ذلك أيضا .... لم أختار أن أرى عائلتي تُقتل في القبو، لم أختار أبا ابنتي، الشيء الوحيد الذي اخترته كان أنت.
- كلام، اخترت شيئا آخر، لا عليك يا جدتي، سأخلد للنوم فغداً لدي يوم شاق.
- أنا لم أختار أن أهجر أمك يا نيكولاس ...
- لا أم لي ولا أب إلاك يا عزيزتي، أخلدي للنوم فأنت مرهقة، تصبحين على خير.
- أمي، وكأنني لا أذكر حتى اسمها، ماذا كان؟ كريستينا ربما؟ لا يهم، فقط لدى أنت يا ستيفاني، أو كما تحبين اسمك الملكي، أنستا زيا نيكولايفنا.

\*\*\*

### أنستازيا...

- هيا تحركوا، هناك أوامر بنقلكم للقبو حفاظا على سلامتكم
- حفاظا على سلامتنا من من؟
- لا تسأل، هيا تحركوا.
- اسمعوني جميغا، يحاول أقرباؤكم الوصول هنا الآن لتحريركم، وهذا خرق كامل لمبادئ الثورة التي قامت عليكم بالأساس، لذا حكم المجلس عليكم بالإعدام رميا بالرصاص .
- مفروعة قمت من نومي موقظة زوجي - آنذاك.
- عزيزتي! هل هو ذلك الكابوس مجددا؟
- تسأل وكأنك لم تكن جزءا منه.

- لا تبدئي ذلك الآن يا استاذيا، ماذا كان يفترض بي أن أفعل!
- لا يهم، لقد فعلتم ما فعلتموه. سأعد لنفسي مشروباً وأسترخي حتى طلوع الصباح، أكمل نومك.

بالطبع يسأل ماذا كان يمكنه أن يفعل، ربما كان عليه قتلي معهم يومئذ، أه عليك يا فتاة، لقد عشت سنوات جميلة في القصر والآن عليك الاكتفاء بهذا الخبز الرديء وهذه البطاطا الفاسدة، تبا للألمان وسحقاً لألمانيا التي كانت السبب في كل هذا، لا أعرف على من أقي اللوم، هل على أولئك الشيوعيين الحثالة، أم على «فيلهلم» ابن عم أمي، فلولاه ما استطاع الشيوعيون إحداث هذه الفوضى. لا يهم! فأنـتـ الان مجرد نادلة تتملقـ النازيينـ الحمقـىـ منـ أجلـ الفتـاتـ.

أعددت فطوراً بسيطاً قبل أن أخذ حمامي الصباحي المعتاد، أمام المرأة أطلت النظر في وجهي الذي بدت فيه التجاعيد واضحةً وما وضوحتها إلا مواراً لما تخفيه عن العالم. تحسست تلك الندبة أعلى حاجبي الأيمن محاولةً بيايس منع ذلك الكابوس من غزو عقلي مجدداً، لا أنسى تلك الشظية الخارجية من فوهـةـ بندقـيةـ ذلكـ الشـيـوعـيـ، لا أنسـىـ كيفـ اختـرـقتـ هـذـهـ الرـصـاصـةـ رـأسـكـ ياـ أـلـيـكـسـيـ، ياـ وـلـيـ عـهـدـ الـإـمـبرـاطـورـيـةـ الـرـوـسـيـةـ العـظـيمـةـ.

احتضنت قلادي الذهبية، احتضنتها تماماً كما احتضنت ماريا يمناي مناولةً إيّاى هذه القلادة قبل أن تهرع روحها للسماء مفارقةً جسدها النحيل. أذكر ذلك الوابل من الرصاص الذي انهال علينا في القبو، أذكر صرختك يا أبي، أذكر بكائك يا أمي، أذكر دموعك يا تاتيانا، أذكر صوت دقات قلبك يا أولجا، أذكر ذلك كما لو كان بالأمس، أذكر ذلك كله بل أراه كل يوم.

- عزيزتي، أما زلت بالداخل؟ أريد استعمال الحمام قبل الذهاب للجريدة.

- حسنا لا تصرخ. أمهلني خمس دقائق.

أنهيت حفامي الصباحي البارد وارتديت ملابسي حتى أنهى زوجي حفامه.

- هل هنالك من جديد في العمل؟ آية أخبار مثلا عن تطورات الحرب؟.... سألته بينما أقضم شطيرتي الباردة سيئة الطعم.

- تنتشر الشائعات هنا وهناك أئنا خسرنا المعركة على الجبهة الشرقية بالفعل، وبحلول أيام سنحاول تسوية الحرب بشكل ودي، ربما تكون اتفاقية سلام، لا أعلم. ما أعلم أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إخبار الناس بهذا، فقط نردد «نحن بخير، عاشتmania، عاش هتلر، سنتنصر، الموت للسوفيت، الموت لأمريكا، الموت لبريطانيا،... وكل هذا الهراء»

- كم أتمنى حقاً أن ينتهي الظرفان، يموتان، يختفيان إلى الأبد.

- لا تستعجل، فإذا حدثت معايدة السلام فسيعود السوفييت للانتقام مرة أخرى.

- أنت ساذج، لن تحدث معايدة سلام. أنت بنفسك تعلم السوفييت أكثر مما أفعل.

- ليس تماماً، كانت فقط أربعة أعوام، لا تكفي لفهم ما يفخر به هؤلاء القتلة.

- تتحدث عن القتل؟

- هانت تبدأين مرة أخرى، حسنا ستizi، «أنا جاسوس ألمانيٌ خنزير تقرّبُ للشيوعيين قبل الحرب العالمية الأولى من خلال معرفة أبي بفلاديمير لينين المنفي آنذاك فيmania، وكنت من فرقه الإعدام التي قتلت عائلتك بالكامل، وياليتنى قتلتك آنذاك ولم أخذك معي عائداً لألمانيا» هل أنت سعيدة الآن؟ هل قلت ما تريدين؟

- كلام، نسيت كذلك أنك عقيم.

- فلتحترقى في الجحيم يا انسناتازيا، تماماً مع إخوتك.

فلتحترقوا جميعاً في الجحيم، أنت والنازيون والشيوعيون،  
فلتحترقوا جميعاً.

لم أز زوجي هذا بعد ذلك اليوم، ففي اليوم نفسه اقتحم السوفويت برلين، كان الصراخ عالياً بشكل لا يطاق، ليس صراغي وحسب بل صراغ نساء المدينة جميعاً، كنت أصرخ حتى كادت أحجالي الصوتية تنقطع، تماماً كملابسي وملابس كل نساء المدينة كذلك بأياد الجنود السوفويت. كانوا شباباً يافعين، بل ربما لو كنت أنجبت لكان أبنائي بعمرهم أو أكبر قليلاً، ما زالت صرخات النساء تلك تدوي في أذني مختلطةً بصرخات عائلتي في القبو.

حاولت الهرب بعيداً، لقد انهارت المانيا تماماً، لم أكن أعرف وقتها كيف يجب أن يكون شعوري، هل أفرج لأن النازيين الحثالة قد انتهوا إلى الأبد، أم أحزن لأن من انتصر لهم قتله عائلتي؟ لا يهم، فلقد اختبرت نوعاً جديداً من المشاعر لم أعرفه من قبل، هنالك شيء يتحرك في أحشائي، كلما تحرك هذا الشيء تذكرت كما تساءلت كيف وصل إلى هنا. كيف ذلك؟ كيف لأمرأة تخطرت الأربعين أن ينمو في أحشائها طفل؟ ظننت حينها أنها هبة من الله، وحده يعلم كم احتجت لهذا الطفل، لا يهم من هو أبوه، بل المهم فقط أنه من نسل العائلة، سأسميه نيكولاوس على اسمك يا أبي، وسيستعيد عرشك من جديد، وسيعرف العالم قصتنا إلى آخر الزمان.

كنت أظن أن حظ عائلتي في الحياة لم ينته بعد، كذلك حاولت خداع نفسي حتى يوم أن وضعتها. من أنت؟ أين نيكولاوس؟ ما الذي جاء بك إلى هذه الدنيا أيتها الغبية، هذه الدنيا ليست لأمثالك من الضعفاء، توقف عن الصراخ وارجعي من حيث جئت، لن تستردي عرشك، فالفتيات لا يرثن العرش في عائلتنا! لماذا؟ لماذا بعد كل هذه السنوات من المعاناة لا أحصل حتى على مكافأة؟ لماذا جاءت هذه بدلاً من

نيكولاس، لماذا أخذتني كل شيء؟ عائلتي، قصري، وطني، حتى ولدي  
عهدك يا أبي سلبني إياته. اضطررت يومها أن أترك تلك الطفلة قبل أن  
تأخذ مني رضعة واحدة، وضعتها في ذلك الملجأ قبل أن أغادر برلين  
 تماماً، سامحيني يا ابنتي، فكلانا يستحق ما هو أفضل، أنت تستحقين  
الحياة بينما أستحق أنا نقضاها.

\*\*\*

دق جرس الباب، إنها السابعة صباحاً وقد مر من الوقت الكثير حقاً  
قبل أن يزورني أحدهم.

- مهلاً يا من بالباب، أنا قادمة.

يا إلهي تزداد الحركة صعوبةً حقاً بعد الخامسة والثمانين، ربما  
سيكون أحد الأولاد المزعجين يطلب حلوى عيد الميلاد. نظرت من  
الباب لأرى امرأة في منتصف العمر تقف باكيّة حاملة طفلًا على كتفها،  
لا تبدو لي متسللة، فثيابها مقبولة المنظر.

- مرحباً يا عزيزتي، ماذا تريدين؟

- أنت استاذياً؟ لم أتوقع أن تكوني على قيد الحياة بالفعل.

تناديني باسمي القديم؟ كيف لها أن تعرفه، هل عرف السوفيت شيئاً؟

- لم ينادني أحد بهذا الاسم منذ أربعين سنة، من أين لك بهذا الاسم؟

- من ذلك الملجأ الذي تركتني فيه.

- أنت كاذبة.... اذهبي من هنا ولا تعودي مجدداً.

قلت ذلك وانا أصفع الباب صفعاً أمام وجهها.

- لو كنت مكانك لفعلت الشيء ذاته، لقد أخبروني في الملجأ بكل شيء، أنا لست هنا لأنوكم، بالطبع لن ألومك. لن ألومك يا أمي على تركك لي قبل أن تحتضنني من الأساس، لأن ألمك على أثني تركت

المدرسة في سن صغيرة، لن ألومك على أنني أعمل بغياناً في أحد النوادي الليلية. لا ألومك على كل هذا، ألومك فقط على شيء واحد، أنك سترغبني على أن أفعل بطفلين - الذي لا أعرف أباه - كما فعلت أنت بي أنا امرأة هالكة على كل حال، شخصت بالإيدز منذ أسبوع، وحشاً أحمد الله على أنني شخصت به بعد أن أجبت هذا الفتى التعيس أنا لست هنا كي آخذ منك شيئاً، بل لأتركه لك، فهذا الصغير لا يستحق أن يعاني كما عانيت في الملاجئ.

ساد الصمت قليلاً، تفقدت الباب لأرى هذه المرأة المعتوهة قد رحلت، تدعى أنها ابنتي! لا أحد يعلم أنني ما زلت حيةً من الأساس، لقد عشت وعملت وتقاعدت باسم جديد بالفعل. فتحت الباب ملقة نظرةأخيرة لأتتأكد أن تلك المعتوهة قد ذهبت بلا رجعة لأجد هذا الصغير نائماً في بطانية صغيرة، مبتسمًا وكأنه نزل من السماء، ابتسامة أجبرت شفتي على الابتسام بينما أنحني لأحمله بين ذراعي، متتجاهلة عظامي التي ضعفت، واستيقظت أموتي من سباتها الذي دام لعشرات السنين، وكأن الزمان يحاول أن يعوضني بك أيها الأمير النائم، وكأن الله قادر لك يا نيكولاس أن تسترّ عرشك المنهوب.

\*\*\*

- صباح الخير، أمل إلا أكون قد تأخرت عليك. أنت المترجم أليس كذلك؟

- في موعدك تماماً. بلى، ديميتري أبراموف، أتشوق حقاً للعمل مع قامة علمية مثلك يا سيدي.

- مهلاً أنت تتحدث العربية! يارجل أين كنت منذ سنوات...

تذكر أنك حملت روایة عندما يعزف الشيطان حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة

## السقوط

ما سوندو...

أقيمت من يدي تقريراً عن عدد الوفيات نتيجة المتصور الجديد من الباراتوكس، أنا لا أفهم هذا الكلام، ما أفهمه أنني لن أموت الآن. فتحت التلفاز إذ كانت قنوات الأخبار حول العالم لا يشغلها إلا الانتخابات الأمريكية، لا تمل القنوات من استضافة هؤلاء الساسة. رفعت الصوت حتى أسمع ما يقوله رئيس أمريكا الحالي عن منافسه...

«كما قلّت لك من قبل، هذه هي الفوضى التي لطالما صطحبت مثل هؤلاء، لا يمكنهم الصفح! كلما تعرض أحدهم لل شيء اليسير لا يكُف عن النباح و العويل، ما زالوا يذكرون الفصل العنصري حتى اليوم! ما هذا العبث! الجمهورية الفرنسية من أقوى حلفائنا واليوم انظروا لحالها! تسقط في أيدي بعض الإرهابيين الأفارقة! لا بد لنا كأمّة أمريكية أن نحذّر، فمستقبلنا بأيدينا، وألا ننخرط وراء ادعاءات البعض بأنّ السود لا يأخذون حقوقهم في الولايات المتحدة، بل من الواضح أنّهم أخذوها أكثر مما ينبغي، والآن نجد هذا المتطرف ستيف و الذي قال عندما سُئل عن رأيه في الإرهابي "عبد الله كوناتي" تهرب من وصفه بالإرهابي! من الواضح أنّهما يمتلكان نفس الأيديولوجيا، بل ربّما كان اسم ستيف الحقيقي چمال أو محمد، من يعلم حقا!»

- ستيف، هل لديك رد على هذه الاتهامات؟

- أي اتهامات؟ يبدو لي أن ذلك الأبله قال شيئاً منطقياً في النهاية...  
فأنا بالتأكيد لن أصم ماسوندو أو كوناتي بالإرهاب لأنّهما يريدان الإنتقام لأوطانهم، متلماً أريد أن أفعل.

- هل يمكنك التوضيح سيد ستيف، فربما يسيء فهمك المشاهدون.

- فليفهموها كما يشاؤون، على مدار ثلاثة عاصي وهذا البلد بني على

اكتافنا، نحن من زرعنا القطن و قصب السكر، و نحن من حاربنا في الحرب الأهلية لنيل حرياتنا، و نحن من شاركنا في الحروب كافة لنعوض ما فقدناه من مكانتنا الاجتماعية، أديك أدنى فكرة لماذا لم يكن بيل جيتس او مارك زوكريبرغ او ستيف جوبز سود البشرة؟ كل المشاهدين يعلمون ذلك، السبب ذاته أنه لا يوجد ديف شابيل او مايكل جورдан او ليرون جيمس بيض البشرة.

- ألا ترى أنَّ كلامك يحتمل بعض التحرير، سيد ستيف؟

- بالطبع أراه كذلك، كما أرى أيضاً ذلك الأحمق الذي تسبب بمقتل عشرات الأمريكيين من ذوي البشرة السمراء، أرى ذلك كلما نظرت بعيني السوداء في البلد الذي لطالما أحببته ولكنه لم يحبني، هذا الوطن ممزق ولا يحتمل تمزيقاً أكثر من ذلك، سأفوز بالانتخابات وسيعاقب هذا الوغد على أفعاله التي لطالما اختباً وتوارى عن الأعين منها .... لا تنظري إلى هكذا، أنت تعلمين أنَّ هذا الوغد كان قائداً الشرطة السابق في لوس أنجلوس، وتعلمين تماماً ماذا تفعل شرطة لوس أنجلوس فيينا. سينتهي ذلك بمجرد أن ننتصر، ستعود الولايات المتحدة لسابق عهدها.

- ولكن سيد ستيف، ماذا بشأن وباء الباراتوكس الجديد المنتشر هذا؟  
يبدو لي أنك لم تذكره أبداً في خططك.

- لأنني لا أؤمن به من الأساس، ألم يظهر هذا الوباء المزعوم بمجرد أن شعر هذا الرجل بالخوف من عدم انتخابه للفترة الرئاسية الثانية؟ فكري بهذا الأمر.

- سيد ستيف أنت تطلق اتهامات بغاية الخطورة.

- وكأنه كان يُلقي علي بالازهار في لقائه الذي عرضتموه لتوكم...  
اسمعي جيداً، وليسعني كل أمريكي حز يحلم بالعيش المستقر الآمن،  
الأمن يأتي أولاً قبل كل شيء، ولن يتحقق الأمن إلا بتحقيق العدالة بين

كل الأميركيين، هذا ما لدى لهذا اللقاء. شكرًا.

أغلقت التلفاز:

- صباح الخير سيدى.

- صباح الخير يا فتى، هل أحضرت لي قائمة الإعدامات؟

- ستصلك فور أن تنتهي من شرب قهوتك فخامة الرئيس.

- هيا أسرع قبل أن أدرج اسمك فيها، ناولني الهاتف.

تناولت الهاتف لأتصل بصديق ...

- مرحبا يا كوناتيه، كيف حالك.

- بخير يا رجل، ما بالك تتصل بي في هذه الساعة الباكرة؟

- لا بأس عليك لا تقلق، أريد فقط دعوتك لزيارة لزيارتى. لا حجّة لديك،  
اليوم هو الخميس وغدا إجازة رسمية.

- زيارة ودية بالطبع.

- كلاً زيارة رسمية.

- يا رجل ألم تكتفِ من الزيارات الرسمية، لا يمكنني ترك البلاد الآن،  
نحن على وشك إجراء الانتخابات.

- أعلم ذلك، لكن انظر، أريد التحدث معك بشأن الانتخابات هذه.

- ماذا بشأنها؟

- أما زلت مصراً على ذلك؟

- بالطبع، هذا ما سيضمن ليلاً الحق في تقرير المصير.

- يا رجل أي حق هذا الذي تتحدث عنه، الناس يعشقونك عندك.

- لا بد من ذلك أيها العجوز، إن أردنا إحداث التغيير فلا بد لنا من البدء

بأنفسنا.

- تبا لعقول الشباب التي عبّت بها الفرنسيس حقاً، على كل لن  
أستطيع منعك، هذه بلادك في بادئ الأمر وأخره. لكنك ما زلت مدحنا لي  
بزيارة رسمية.

- حسنا سأحاول التنسيق، يا رجل نتحدث وكأننا لسنا رؤساء لدولتين  
خرجتا للتو من حرب ضروس.

- ربما أصبح كل منا رئيساً لوطنه، لكنك ستظل صديقي، كما ستظل  
لقومنا «الفحلص».

- ها قد عدنا للحديث عن ذلك، اسمع، يجب أن أذهب الآن، لدي زيارة  
إلى مارسيليا.

- بالطبع، سلام عليك أيها «المخلص».

بالطبع يا صديقي، بالطبع عليك العودة يوماً ما. دخل على مدير  
المكتب حاملاً قائمة الإعدامات، لم تكن كبيرةً كسابقتها منذ شهر،  
قائمة لا تتعدى المائة اسم فقط، هذا مخزٌ حقاً، وكان الوطن صار فجأة  
مكاناً للصالحين.

- سيدي، ذلك الرجل على الهاتف.

- أيِّ رجل؟

- الطبيب، المصـل.....

- نعم نعم حـوله إلى فوراً ..... صباح الخير سيدي ..... بالتأكيد .....  
تحت أمرك .... بالتأكيد أعلم ذلك ... حسناً ... سترى الخبر في الأخبار  
غداً.... لا تنسِ رجاءَ ما اتفقنا عليه.... حسناً سـاكون عندك بمجرد أن  
ترى الخبر.

أغلقت الخطّ واجريت اتصالاً آخر بينما اتفقد بصعوبة قائمة  
الإعدامات الشهرية تلك، مضيقاً بعض الأسماء وشاطئنا بعضها، أصبحت

عجوزاً يا تايو وضعف بصرك، يبدو أن هذا المرض يتمكن منك، لحسن الحظ أن غداً هو اليوم المنشود.

\*\*\*

ستيفين

- «باميلا»، ما المواجهات التي لدينا للغد؟  
- لا شيء مهم سيد ستيف، لقاء على تلك القناة التليفزيونية التي لا تحبها.

- حسنا فلتلتفها، لقد جاءني اتصال للتؤييف بأن كوناتيه ذاهب إلى مارسيليا، يجب أن نذهب لمقابلة هذا الرجل بأي شكل ممكن.  
- ولكن سيد ستيف، أنت تعرف أن سمعة هذا الرجل ليست أفضل ما يمكن هنا في الولايات المتحدة.

- تتحدىين كما لو كنت منهم، هذا الرجل هو كنز لمن يستطيع أن يخطب وده، هذا الرجل أسقط بسواعده الجمهورية الفرنسية وأجبرها على الاستسلام، ما بالك لو كسبنا خبرته تلك لصفنا، سمعت أيضا أنه لن يترشح لفترة جديدة وسيعود لوطنه حالما يسلم السلطة لمن بعده، هل رأيت في حياتك شخصاً كهذا؟

- ستيف، لقد تسبب في مقتل آلاف البشر، هل تعي ما تقول؟  
- لكنه أحيا عشرات الملايين، على الذهاب، هذا الرجل سيكون ذا شأن عظيم عندما نفوز بالانتخابات. أحجزي لي الرحلة القادمة من شيكاغو لمارسيليا، فوراً.

\*\*\*

كوناتيه...

ترجلت من الطائرة الرئاسية ببطء شديد على الدرج أكرر رحلة أبي

منذ أكثر من ثلاثة عاماً، جئت إلى هنا مهاجراً يا والدي، وهأنذا أعود من المطار ذاته، لكن اختلفت الطائرة، أعود حيث علمتني كل شيء، أعود حيث عرفت منك أني عبدالله ولن أكون عبداً إلا لله.

ركبت السيارة وذهبت مباشرةً للمنطقة التي ترعرعت فيها، لم تستطع السيارة الدخول من شدة الزحام حول المنطقة بكمالها، كل شيء على حاله، حتى مسجد والدي. نظرت في أعين المصطفين، وكأن مارسيليا جميعها جاءت لحضور خطبة الجمعة، زحام لا آخر لأوله، أناس من كل مكان، أتقدم الصفوف باسماً في الوجه، أحضر ذلك الشاب ابنه الصغير ليستمع إلى الخطبة، وهذا جاء ووالده القعيد، وهؤلاء جاءوا وعلى ملابسهم تبدو آثار السفر ومشقة الطريق، كل أولئك البشر هنا يا أبي، كل تلك النظارات التي يعجز لسانى لأول مرة عن التعبير أمامها. خلعت حذائي، ودخلت المسجد وتقدمت الصفوف، صفا يلي الآخر، لماذا أرى وجهك يا أبي في كل هؤلاء؟ لماذا أشعر يا أبي أنك ترانى؟ لماذا لا أشعر بالفرح يا أبي، اشتقت إليك حقاً أيها الشيخ.

صعدت المنبر ببطء وكأن قدماي تخشيان صعوده، كلا، لست قلقاً لأنني لم أحضر شيئاً لهذا الجمع من الناس، سأترك لسانى يفعل ما اعتاد فعله طوال حياتي. وقفت ناظراً في أعين الناس قبل أن ألقى السلام، هل أراك الآن حقاً يا أبي أم أن عقلي يبعث معى. أمسكت مكبر الصوت لألقى السلام على الجميع...

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

وأظلمت الدنيا بعد ذلك يا أبي.

\*\*\*

«انفجار هائل في محيط مسجد السلام بمدينة مارسيليا خلال الزيارة الأولى لرئيس جمهورية مالي للأراضي الفرنسية الواقعة تحت سلطنته تابعونا للمزيد من التفاصيل»

لفظت القهوة من فمي، لا أعلم أكان ذلك لسوء طعمها المعتاد أم من هول الخبر ومنظر الأشلاء المتناثرة. رُنْ هاتفي، بالتأكيد هي مادلين، تفعل ما يفعله كل الصحفيون، يزعجونك. لكنها تفعل ذلك بطريقة أحبتها.

- هل رأيت ذلك!

- نعم رأيته للتو، هل لديك خبر عن عدد الضحايا والمصابين، هل يمكن أن نساعد أحداً؟

- كلام، لن يستطيع أحد المساعدة، من الصور التي لدى لابد أنّ عدد الضحايا تخطى العشرة آلاف... قالت بصوت اختلط فيه الحزن بالشفقة.

لم أرد، فقط ظللت صامتاً منتظرًا منها أن تستكمل حديثها.

- لقد كانت تلك الزيارة الأولى لكوناتيه والذي من المفترض أن فترته الرئاسية أوشكت على الانتهاء، ألا ترى من الفاعل حقاً؟

- لا أعلم، بالتأكيد هو شخص لا يريد أن يفوز بالانتخابات، أليس كذلك؟

- كلام أيها الجاهل، كوناتيه لم يكن مرشحاً بالأساس، لقد تنازل عن الحكم طواعية.

أيها الجاهل، تذكريني تلك الطريقة بصفيرتي، سلمي، ليس هذا هو الوقت المناسب يا رجل كي تذكريها، هناك الآلاف تحولوا لأشلاء دون أي سبب يذكر. أوقفت شريط الذكريات قبل أن يبدأ، وقلت

- إذا هو شخص لا يريد أن تحدث انتخابات من الأساس؟ أو شخص ربما يريد أن ينتقم لفرنسا بعد الحرب، شيء من هذا القبيل ربما؟

- بالتأكيد، لا يوجد خيار ثالث... مهلاً مهلاً، هل تنظر للأخبار الآن؟ أترى ذلك الرجل؟

كنت قد أصمت التلفاز كي أميّز صوتها من صوت صافرات الإنذار، أعدت تشغيل الصوت ونظرت للشاشة، رأيت ذلك الرجل ذو الشارب العريض، حليق الذقن، قصير الشعر، يشبه لاعبي كرة السلة الأمريكية.

- أظنّ هذا الرجل مألوفاً لدى، أليس ذلك سياسياً أميريكياً أو ما شابه؟ ماذا كان يفعل في ساحة المسجد؟ قلت بينما كنت أعد لنفسي فنجان القهوة بدلاً من ذلك الرديء الذي لفظته على الأرض.

- بلى، هو ستيفين جرين، المرشح الرئاسي للولايات المتحدة الأمريكية، يكنى الكثير من الاحترام لكوناتيه وأظنه جاء لمقابلته.

- لا أثق بهؤلاء القوم. قلت ذلك متأففاً.

- من تقصد بهؤلاء القوم؟ ... سالتني بهجة مستنكرة لدرجة أني شتمت رائحة الغضب.

- الأميركيون، لا أثق بهم، أتذكرين ذلك المؤتمر الذي قال فيه رئيسهم أنه سيحصل على المصل المضاد للباراتوكس حتى ولو كلف ذلك أن يضرب كل من يمنعه بالقنابل النووية؟

- لا تكن ساذجاً، ما تلك إلا دعایات انتخابية لكي على ستيف.

- كلا لا أقصد ذلك ... قلت بصوت عالٍ وكأنّي أحارّ الدّفاع عن نفسي فالرجل الذي يتوعّد بقصف العالم بالقنابل النووية بالتأكيد لن يتواونى عن قتل بعض الآف من البشر من أجل التخلص من عدوٍ واحد أو ربما عدوين، فبالتأكيد يكره كوناتيه كذلك.

سكتت قليلاً وبذا لي أنها تفكّر في كلامي، لتكمّل قائلةً

- أتدري، بالتأكيد إنها الولايات المتحدة الأمريكية هي من قتلت كوناتيه وستيف، أرادوا إسقاط صقرين بعيار ناري واحد فقط.... لا أريد أن أطيل عليك، سأطلعك على أيّ جديد وأنتظر منك المثل كذلك.

- ماذا عن المتحور الجديد؟ أيّ أخبار؟

- كنت لأسألك السؤال ذاته، لا شيء، فقط أعداد الموتى تتزايد وકأنها في سباق.

- لقد تعبت حقا. اطلعيني إن جد جديد.

ولم يجد جديدا لعدة شهور، ما كنت لأتوقع أن يتتطور الباراتوكس بهذه السرعة كي نعود إلى نقطة الصفر. وكان هنالك شخص ما في مكان ما بهذا العالم يتحكم به ويتطوره كيفما يشاء. يا لسذاجتي، أنا لست مثلك يا أخي، لن أكون مثلك. ترسل إلى جوليَا تقارير يوميا عن تدهور الحالات بالمعمل، وترسل كل منظمات الصحة تقريرا عن المصابين والضحايا الجدد.

اتصلت بي مادلين مؤكدة أنها وجدت مكان هذه المنظمة التي تتاجر بحياة الملايين من البشر، موسكو، وكأنها كانت تعلم من البداية.

ميلا...

وقفت أمام الباب منتظرا حتى فتح لي رجل آلي غريب الشكل، رأيت رجلا جالسا على كرسي متحرك يمسك بيده طوق كلب، لم أتبين ملامح الرجل من الجانب، لكنني تبيّنت ملامح من بالطوق عندما زمجر باتجاهي.

- تايو، أهذا يا فتى.... فتى مطبع.... فتى جيد.....

كان ماسوندو مربوطا من عنقه بطوق الكلاب، كثيف الشعر، عاري الجسد، يطمس وجهه بقطعة لحم كبيرة الحجم. كسرت الصمت.

- سيدى، لقد فعلت ما أمرت به، لقد نفذت جانبي من الاتفاق، منعت البلاد من التدخل لحماية فرنسا، مؤلت ماسوندو، عاهدتكم فأوفيت بعهدي، أرجوك ... الناس يموتون في وطني....

وأشار الرجل بإصبعه فجاء ذلك الآلي حاملا معه جرعة.

- شakra لك سيدى.... لن أخذك.

## كارمينا بورانا

- أنا آسف، لا يمكنني مبادلتك نفس المشاعر.

كان ذلك ردِي المقتضب على مادلين الجالسة أمامي في شرفتي باكراً في الصباح، لا يمكنني أن أحبّها، فأنا أبحث دائمًا فيها عن سلمي، سيكون هذا ظلماً لكلينا. بدت عيناهَا حزينةً بشكلٍ كبير، توقعت ذلك، ليس من السهل أن يتعرّض أحدُ مَنْ لِلرفض خاصَّةً عندما تكون وائِثَةً لا يخالطها شكٌ في مشاعر الطرف الآخر.

- حسناً، يبدو أنّي تعاديث كثيرًا، معذرةً.

قالت ذلك بتماسِكٍ تحسد عليه بينما تقوم من مقعدها حاملةً قهوةً لها لتضعها بالداخل. ابتسمت لها بلطفٍ شاكرًا إياها على تفهم موقفِي. لتردُّ على بسمتي ببسملةٍ لا يضاهيها جمال.

- حسناً، ماذا سنفعل الآن؟ سألتني متناسيةً ما قلناه منذ لحظات.

- ما يفترض بي فعله، سأغادر قبل انتصاف الليل.

- سأتي معك. قالت ذلك بلهجَةٍ قويةٍ وكأنَّها تأمرني لا تطلب.

- كلاً، سأذهب وحدي. في النهاية لا أريد تكرار ما حدث لصبري معك، لديك أناش يحبونك في النهاية... بالمناسبة، كيف حال والدك؟

- تزداد حالي سوءاً يوماً بعد الآخر، لهذا أريد الذهاب معك، لأخذ المصل معِي وأعود إلى لندن مرةً أخرى.

كانت تكذب، هذه المرأة تحبني حقاً، هي تعلم أنّي في عداد الموتى لا محالة وتريد مرافقتِي لمصيرِي. لا بأس يا صديقي، ها قد وجدنا شخصاً يحبني قبل أن يموت بسبيبي.

- لا تقلقي، لن أموت الآن.

- قلت ذلك يائساً محاولاً أن أطمئنها. لكنني فشلت بشكلٍ مرير.
- ليس هذا ما يشغل بالي، أريد حقاً الحصول على ذلك المصل، لا تنس أنني من دللتك على هذا المكان.
  - لا تقليق، لن أعود بدونه.

رافقتها للباب مؤدعاً إياها بلطف، أخبرتني أنها ستطير إلى لندن للاطمئنان على حالة والدها المريض، سيكون ذلك بلا شك أكثر أمناً من أن ترافقني لعيون الشيطان ذلك.أخذت المصعد هابطاً للمعمل، أمشي بثناقل وكأنني أشعر أنني لن أراه مجدداً، بينما ستكون تلك الحسنة الوحيدة حقاً أنني لن أضطر لإجراء اختبارات على البشر مرة أخرى. اتفقد جوليَا مؤدعاً إياها قبل أن أخذ المصعد للجراج، أخذت سيارتي وانطلقت للعاصمة، حيث بدأ كل شيء.

كان النهار قد أقترب على الانتصاف بينما أتجول بسيارتي في المدينة، انظر إلى كل تلك الشوارع الخاوية! أصبحت تبدو كمدينة للأشباح، بالطبع مات الجميع، ومن تبقى على قيد الحياة معزول في مدينة صغيرة تبعد كثيراً عن هنا. نزلت من سيارتي أمام معملي القديم لتعود إلى تلك الذكريات عندما رافقتني سلمى هاهنا في بادئ الأمر. نظرت إلى صورتنا المعلقة إلى جوار الباب، بالطبع أذكر يا صغيرتي ذلك اليوم، كيف أنسى أنني من تسببت بقتلك بهذه الأقراص التي أعطاني إياها أخي، سامحيني.

أخذت أتفحص المعمل بدون سبب واضح، أتجول فقط هنا وهناك قبل أن أرتدي معطفى مزة أخرى متوجهًا للمنزل، ليس منزلي، بل لمنزل عائلتي الذي لم أدخله منذ ذلك اليوم. ذهبت متراجلاً، فقد شعرت أن قدماي ترددان الشعور بالحياة هنا، فتحت البوابة الحديدية الكبيرة، كبرت النباتات بشكلٍ أشعرني أنني دخلت غابةً صغيرةً، مازالت طاولتي في الحديقة في مكانها بعدما تآذت بفعل هطول الأمطار طيلة السنوات الماضية، تنتابني القشعريرة حقاً بينما أتجول هنا. بتسرع

كانت ساقاي تذهبان للباب ملبيتان ظن عقل الساذج أنه لربما إن فتحت الباب سأجد أبي مؤبحة إياتي على تأخري. مهلا يا قدماء، لا تسبقاني.

بيطء شديد فتحت الباب، بالطبع يبدو كبيت لا تس肯ه إلا الأشباح، ولربما سأكون سعيدا إن ظهر لي شبح أعرفه الليلة. لم يكن البيت متسخا وكأنه هجر لسنوات، لقد كان حقا محكم الإغلاق طيلة هذه الفترة، ذهبت للصالة التي صعدت منها أرواح الجميع للسماء، أرى ذلك اليوم يحدث أمامي مجددا، أرى أبي يأكل لحم صدر أبي، أرى ليلي باكيه تنظر إلي، أرى أبي لا تقوى حتى على البكاء، أشعر بكل ما شعرت به تلك اللحظة، حتى ذلك الألم الذي حطم رأسي، مازلت أشعر به. توجهت لغرفتي القديمة، لا بأس إن نمت حتى الليل فما زال أمامي الوقت حتى موعد الطائرة.

تذكر أنك حملت رواية عندما يعزف الشيطان حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هناظهر لك .

\*\*\*

### مادلين

نزلت من الطائرة مسرعةً عساهي أصل في موعدى قبل أن تسوء الأمور، كلاما لم أذهب إلى لندن، توجهت فورا إلى موسكو. وجدت السيارة التي تم الاتفاق عليها تنتظرني أمام بوابة المطار. لم آبه لذلك الجو البارد ولا للثلوج التي غطت كل شيء، لم آبه إلا أن تأخذنى هذه السيارة للمكان المحدد. بتأنٍ شديد حددت الموقع لتتجه السيارة إليه، جيد أمامي أقل من ساعة ونصف للوصول.

أخرجت هاتفي لأتفقد حال أبي ناظرة من خلال كاميرات المراقبة حوله، يبدو مستقرا على كل حال، لا تقلق يا أبي، لن أكزّر الخطأ الذي

وَقَعَتْ فِيهِ مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً مَضَتْ، لَنْ أَضْيَعَ عَايَلَتِي مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ  
مَهْمَا حَدَثَ، سَأَخْتارُ الْقَرْأَرَ الصَّائِبَ هَذِهِ الْمَرَّةِ. الْقَرْأَرَ الصَّائِبَ؟ هَلْ  
أَخْدُعُ نَفْسِي حَقًّا؟ أَنَا لَا أَعْلَمُ أَيِّ الْخَيَارِينَ أَخْيَرُهُمَا، لَنْ أَجْهَدَ نَفْسِي فِي  
الْتَّفْكِيرِ فِي أَشْيَاءٍ لَنْ تَجْدِي نَفْعًا. قَمْتُ بِفَتْحِ الصَّوتِ حَتَّى يُسَمِّعَنِي أَبِي  
فِي فَرَاسِهِ مَنَادِيَةً إِيَاهُ... أَبِي، لَا تَخْفِي يَا عَزِيزِي أَنَا آتِيَةٌ قَرِيبًا جَدًا،  
سَأَتِيَ بِالْمَصْلُلِ لِي وَلَكَ، لَنْ أَتَرْكَكَ مَرَّةً أُخْرَى، سَتَكُونُ بِخَيْرِ أَيْهَا الْوَسِيمِ،  
أَحْبَبُكَ، إِلَى الْلَّقَاءِ.

مِنْ الْوَقْتِ سَرِيعًا بَيْنَمَا كُنْتُ أَتَصْفَحُ بَعْضَ صُورِي الْقَدِيمَةِ، نَزَّلَتْ مِنْ  
السيَّارَةِ أَمَامَ ذَلِكَ الْمَبْنَى الْكَبِيرِ، كَانَ مُمِيَّزًا حَقًّا، يَقْفَ شَامِخًا وَسَطِّ  
أَرْضِ بَيْضَاءِ تَمَامًا، لَا يَوَازِيهِ فِي الطَّولِ إِلَّا شَجَرَةٌ عَمْلَاقَةٌ بِحَقِّهِ، لَا يَهُمْ،  
أَنَا هُنَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ مُحَدَّدٍ وَقَفَتْ بِأَحْتِهِ عَنْ زَرِّ الْجَرْسِ أَوْ رِبَّما أَيِّ  
شَيْءٍ يَفْتَحُ الْبَابَ، لَكِنَّهُ فَتَحَ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ، بَابُ عَظِيمِ الطَّولِ شَدِيدُ  
السُّفْلَى، يَتَنَاسَبُ حَقًّا مَعَ حَجْمِ هَذَا الْمَبْنَى. شَعُرْتُ بِقَسْعِيَّرِيَّةٍ اِنْتَابَتْ  
جَسْدِيِّ، حَاوَلْتُ تَنْظِيمَ أَنْفَاسِيِّ، تَمَاسِكِيِّ يَا فَتَاهَ لَقَدْ اقْتَرَبَتْ كَتِيرًا.  
تَقْدَمْتُ بِالسِّيرِ مُتَجَاهِلَةً قَلْبِيَ الَّذِي كَانَ يَصْرَخُ لِيَخْرُجَ مِنْ مَكَانِهِ، كَلَّا، لَنْ  
أَدْعُ قَلْبِيَ يَحْدُدُ مَصِيرِيِّ، سَأَسْتَمِرُ بِالسِّيرِ إِلَى الْأَمَامِ، بَابًا يَلِي الْآخِرِ،  
حَتَّى فَتَحَ الْبَابُ الْآخِرِ. كَانَتْ كَفْرَفَةُ تَحْكُمِ عَمْلَاقَةِ خَافِتَةِ الإِضَاءَةِ، بِهَا  
كَثِيرٌ مِنَ الشَّاشَاتِ الَّتِي تَعْرَضُ مَا تَرَاقِبُهُ الْكَامِيرَاتِ. ذَهَبَتْ بِنَظَرِي  
يَسَاً وَرَغْمَ خَفْوَتِ الإِضَاءَةِ رَأِيَتُهُ. عَجُوزٌ عَلَى كَرْسِيِّ مُتَحَركٍ، لَا أَرَى  
مِنْ أَطْرَافِهِ إِلَّا سَاقًا وَذِرَاعًا وَاحِدَةً يَمْسِكُ بِهَا طَوْقَيْنِ يَسْتَخْدِمَانِ عَادَةً  
لِرِبَطِ الْكَلَابِ، لَكِنَّ الْمَرْبُوطِيْنِ بِهِمَا الْآنِ لِيَسَا كَلَابًا، بَلْ عَجُوزَيْنِ عَارِيَيْنِ  
يَلْتَهُمُ كُلُّ مِنْهُمَا قَطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ الْلَّحْمِ النَّيْئِ. قَطَعَتْ زَمْجَرَةً أَحَدُهُمَا  
تَجَاهَيِّ لِحَظَاتِ الصَّمْتِ، أَمْعَنَّتِ النَّظَرَ فِي وَجْهِهِ، أَعْرَفُ هَذَا الرَّجُلَ. هَذَا  
هُوَ...

- مِيلَرُ! أَهْدَأْ...

قَالَهَا بِصَوْتٍ خَشِنٍ أَعَادَ إِنْسَانَهُ الْأَلِيفَ إِلَى قَطْعَةِ الْلَّحْمِ خَاصِّتِهِ،  
نَظَرَتْ فِي وَجْهِ ذَلِكَ الرَّجُلِ عَلَى الْكَرْسِيِّ ذِي الشَّعْرِ الْأَبْيَضِ الطَّوِيلِ،

والعين اليسرى المطموسة داخل وجهه، وعظام وجهه العارية كأن اللحم من أمامها قد سقط. لا أظنني رأيت ذلك الوجه - أو ما تبقى منه - من قبل.

- هل نفذت الاتفاق.

سألني بصوته الخشن فلم أستطع مقاومة تلك الرجفة. ماذا حل بهذين الرجلين ولماذا يربطهما هكذا كالحيوانات، هل أسأله؟ وما شأني في ذلك، أنا هنا من أجل تنفيذ الاتفاق.

- نعم، من المفترض أن تصل طائرته بعد ساعتين قليلة.

أشار برأسه لتأتي إنسانة آلية مقدمة إلى جرعتين من المصل، نظرت للرجلين بجواره بينما يأكلان قطعة اللحم الكبيرة ذاتها...

- لا تقليق، لن تصبحي مثلهما.

قالها وهو يربت برأسه على أحددهما بلطف قبل أن يكمل.

- يمكنك الذهاب الآن.

أخذت الجرعتين من تلك الآلية وأعطيت المكان من حولي نظرة خاطفة قبل أن أستقبل الباب قبل أن تنزل كلماته علي كالصاعقة..

- شكرًا لك يا سلمى.

سلمى! كيف يعرف؟ هل كان يعرف من البداية؟ ألهذا إذا أراد مني أن أجربه إلى هنا؟ جعلني أسوق الرجل الذي أهديته كل سنوات عمري الماضية إلى هنا، حقاً؟ خرجت متباقلة من الباب محاولة منع عيني من الانهيار، ومازالت صرخات قلبي تتبعالي. ركبت السيارة وببدأت بتحديد وجهتي للمطار، تفقدت هاتفي، لأجد أن شركة الطيران تذكّرني بموعد الرحلة إلى سيدني بعد ساعتين، لم أحجز تلك التذكرة من الأساس. بالطبع كان يعرف من أنا منذ البداية. نظرت في صورة كانت تجمعنا ذلك اليوم في معمله، لم تتماسك عيناي، أنا آسفة يا صغيري، آسفة من

كل جوانب قلبي الذي يصرخ بداخلي، آسفة لأنني اخترت بعقولي هذه المرة.

أوقفت السيارة، كنت قد اقتربت من المطار وفتحت النافذة عسى أن تبرد الثلوج نيران قلبي، ممسكة بجرعتي المصل بيدي، أطلت النظر لصورتنا معا، ولأبي الراقد على فراشه في أقصى الأرض، لقد اتخذت قراري من البداية، أنا آسفة.

\*\*\*

تذكر أنك حملت رواية عندما يعزف الشيطان حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة وتحميل المزيد أدخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هناظهر لك.

استيقظت من نومي على جرس هاتفي، مذكراً إياي بموعد الطائرة، اقترب الليل على الانتصاف بالفعل ولا بد لي من الإسراع. قمت سريعاً من مرقدي وألقيت نظرة الوداع على المنزل قبل أن استقل سيارتي للمطار، لم أشغل بالي بالكثير في هذه الأثناء، أحاول فقط أن أسترخي فقد اقتربت من الوصول للحقيقة، هل تظنني سأعود من هذه الرحلة منتصراً؟ لا أعلم، ولست مهتماً كذلك، لكن أتعلم؟ أنا مرهق يا صديقي، فقط تمنى لي الحظ.

مررت رحلتي لموسكو بسرعة، لم أستطع التفكير بشيء طوال الطريق، فيم سأفكر برأيك؟ لا شيء، فرأسي لا تملؤه إلا الذكريات المتضاربة والأحداث التي أرهقت عقلي. هبطت الطائرة ونزلت منها متوجهاً لمكتب استئجار السيارات بالمطار، استأجرت سيارة حديثة بما يكفي لتشغيل نظام القيادة الذاتية، أدخلت بيانات الموقع الذي أعطتنى إياه مادلين ليلة أمس وبدأت الرحلة. ساعة ونصف، ستكون الشمس قد أشرقت بالفعل. أرحت ظهري وتصفحت الواقع الإخبارية من باب تمرير الوقت لا أكثر. يا رجل هذا العالم عجيب حقاً، كلما ظننت نفسك

مدركاً له يفاجئك بما هو أعتى وأشد. انظر إلى الولايات المتحدة على سبيل المثال، اخترق رئيسها تماماً بعدها وعد شعبه بتوفير المصل للجميع، ولا يعلم أحد مكانه حتى الآن، انظر إلى عدد الضحايا لديهم، أكثر من مائة مليون فقدوا حيواناتهم، ومائة آخرون بين العجز الكلي والغيبة وسيموتون عاجلاً أم آجلاً.

وصلت إلى وجهتي، علمت ذلك عندما توقفت السيارة في مكان قفر لا ترى فيه إلا اكتساع الأرض بالثلوج، وتلك الشجرة التي تشبه بشكل كبير شجرة الكافور تلك أمام معملي، بالطبع ليست بذلك الارتفاع، لكنها تقترب منه وهذا المبني الضخم الذي يشبه المباني الحكومية. ترجلت من السيارة ببطء يضاهي صعود الشمس من سباتها في الأفق، بخطوات ثقيلة في أكوام الثلج الذي يبدو أنه تساقط من السماء طيلة الليل. بحثت عن أي شيء في الباب يمكنني من فتحه، دفعته دفعاً إلى الأمام ليخرج مستشعر بحصة ويلقط عيني اليسرى، فيفتح الباب. مهلاً؟ كيف هذا. دخلت الباب وتباطأت قدماي أكثر فأكثر، إنه الممز الأبيض بذات الإضاءة البيضاء المائلة للزرقة، والباب ذاته. دنوت برأسني واضعاً عيني اليسرى أمام مستشعر البصمة ليفتح الباب الثاني لتنطلق رشاشات البخار المعقم، اقتربت من الباب الأخير بعيني اليسرى مرةً أخرى، نعم كنت محقاً، هو الباب الأخير. فتح الباب لأجد نفسي هنا، في معملي، الشاشة ذاتها على يميني التي تظهر كل شبر بداخل المعمل وخارجيه، أنا حقاً في معملي، هذه الشاشة تظهر الصحراء لا الثلوج، هل هذا حلم من أحلامي الساذجة أم أنني دخلت فجوة زمنية. ذهبت مباشرةً للغرفة الرئيسية لأرى أن شخصاً هنالك مستلقٍ على ذلك السرير في منتصفها.

وبجانبه كرسي متحرك. اقتربت ببطء شديد بينما تتضح لي معالم ذلك الراقد هناك، اقتربت أكثر لأراه ناظراً إلي، نظرت في عينيه فابتسم بوجهه لتسارع الأفكار في عقلي مزاحمةً أحدها الآخر تريد الوصول إلى لسانني كي تسأله، لماذا؟ وبقدر تسارعها كانت عيناي تفيضان من

الدمع. كنت فقدت كل شيء بالفعل، لكن هذا شيء آخر.  
جاءت جوليا لتناولني حقنة القتل الرحيم، تناولتها، لأغرسها في رقبته  
ببطء لتهز دمعة من عينه إلى وجنته مكملة رسم ابتسامته، بينما  
يمسك بيديه يمني حتى شعرت بارتخائها، أغمضت عينه وأدرت ظهرى  
متوجهاً للوحة المفاتيح بالخارج، بالطبع يعلم كلاماً أنا وأنت ماذا  
سأفعل.... أظلمت المعمل بالكامل وفتحت النوافذ ليدخل ضياء شمس  
الصباح في أرجاء المعمل بكماله، فقللت نظام التدمير الذاتي ليبدأ العد  
التنازلي وعدت للغرفة ذاتها، ببطء ينافي تدفع عيناي وعقلى تسير  
قدماي باتجاه البيانو، جلست على المقعد وقطعت أصابعى ناظراً في  
النوتة الموسيقية، بالطبع ..... مقطوعتك المفضلة يا أخي.



تمت

\* \* \*

إهداء

لكل إهداؤه، فابحث عنه بين السطور

[maktabbah.blogspot.com](http://maktabbah.blogspot.com)

# عنوان الشيشان

انظر في عيني وصف لي ماذا ترى، هل أنت خائف؟ أحسنت!  
أنت تجيد تقدير المواقف، باستثناء ذلك الذي أتي بك إلى هنا.  
لا يا عزيزي لا تبك الآن، ليس قبل أن أستمتع بك قليلاً. اطمئن،  
سأجعل ميتتك بطيئة ومذلةً كما لم يتسس لعقلك أن تخيلها.

